

تجديد الدين

الشيخ وحيد الدين خان

ترجمة

الدكتور ظفر الاسلام خان

Reprinted 2015
This book does not carry a copyright

Goodword Books
Nizamuddin West Market
New Delhi-110013
e-mail: info@goodwordbooks.com
www.goodwordbooks.com

Printed in India



تهييد

يروي جبير بن نفير عن عوف بن مالك الأشعري أنه قال: بينما نحن جلوس عند النبي ﷺ ذات يوم إذ نظر إلى السماء فقال: (هذا أوان يرفع فيه العلم). فقال رجل من الأنصار (وهو زياد بن لبيد): يرفع عنا يارسول الله وفيينا كتاب الله وقد علمناه أبناءنا ونساءنا ؟ فقال رسول الله ﷺ: (إن كنت لأحسبك من أفقه أهل المدينة) وذكر له "ضلاله أهل الكتاب وعندهم ما عندهم من كتاب الله" .. ثم التقى جبير بن نفير بشداد بن أوس فأخبره بهذا الحديث عن عوف بن مالك فقال له شداد: صدق عوف، ثم قال: (هل تدرى ما رفع العلم ؟ .. إنه ذهاب أوعيته.. وهل تدرى أي العلم يرفع ؟ هو الخشوع حتى لا يرى خائعا).¹

إن الإنحطاط الديني الذي يصيب طائفة أمينة على كتاب الله لا يعني زوال كل مظاهر التمسك بالدين أو عدم اهتمام الناس بالقضايا الدينية..

إن شيئاً كهذا لم يحدث في التاريخ. إن الإنحطاط الديني يعني بقاء الدين في مستوى القسوة القلبية وضياعه في مستوى الخشوع². إن دين الخشوع موطن

¹ ابن عبد البر جامع بيان العلم وفضله، ج 1، إدارة الطباعة الموريية، القاهرة، ص 152 – 153.
1 قال الله تعالى: "ألم يأن للذين ءامنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أتوا الكتاب من قيل فطال عليهم الأمد فقتلت قلوبهم وكثير منهم فاسقون" (الحديد: 16).

القلب أما دين القسوة فلا يبرح الأعضاء والجوارح الخارجية فلا يكون جزءا من الشعور حتى يلهم وجдан المرء ويحكم حياته الداخلية والخارجية.

إن هذا الإنحطاط يصيب حملة كتاب الله حين يحولون الدين الإلهي إلى "فن" و"الفن" هو تعين حقيقة ما بلغة الميزان والمكيال، وبما أن الميزان والمكيال لا يستطيعان تناول الحقائق القلبية والوجدانية الداخلية السامية، فهما يتناولان جوانب الحقيقة الظاهرة فحسب. وحين تزدهر فنون من هذا النوع في طائفة ما يزدهر بها خبراء بحوث الظاهر وينعدم بها خبراء الوجدان الداخلي.. والعبادة التي هي خشوع القلب ولهفته نحو الخالق تصبح عملا ظاهريا في المكيال الفقهي.. والروحانية التي هي العيش على مستوى استحضار رب واليوم الآخر، تصبح دربا يجتازه المرء بالتمارين السلوكية تحت إشراف المرشدين.. والدعوة إلى رسالة الحق التي هي غاية النص للعباد تظهر في صورة الخطب والمناظرات والحركات الإحتجاجية وحتى في صورة الفوضى والتخريب..

وعندما يصل حملة كتاب الله إلى مستوى (القسوة) فلا سبيل لإعادتهم إلى مستوى (الخشوع) إلا بتطهير دين الله من إضافات البشر.. لأن هذه الإضافات هي التي صاغت هذا الفكر الذي أدى إلى ظهور القسوة القلبية. إن الدين الحقيقي ينبع من دين الله ورسوله، وليس من دين يضعه البشر..

تجديد الدين

إن تجديد الدين لا يعني إختراع إضافة لدين الله وإنما يعني تطهير الدين الإلهي من الغبار الذي يتراكم عليه، وتقديمه في صورته الأصلية النقية الناصعة.

إن "الغبار" الذي يتراكم على الدين الإلهي ظل من نوع واحد على مر العصور وهو الإضافة البشرية إلى المتن السماوي. وتأتي هذه الإضافة في بداية الأمر بسبب عوامل وقتية، ولكنها بمضي الزمن تصبح شيئاً مقدساً حتى تعتبر جزءاً من الدين الإلهي، ويؤمن بها الناس إيمانهم بالوحى السماوي، ويصل بهم الأمر إلى إتخاذ أخبارهم ورهبانهم "أرباباً من دون الله" حسب التعبير القرآني (النبوة: 31).

وتأتي هذه الإضافة لسبعين إثنين بصفة عامة:

- 1 - محاولة تعين حقيقة الدين من الناحية الخارجية.
- 2 - بيان التعاليم الدينية بالمصطلحات العقلية (العقلنة).

ونجد مثلاً للخطأ الأول في الأبواب الأولى من التوراة (العهد القديم)، وهي الأبواب المليئة بالتفاصيل الجزئية جداً حول القرابين. ولا علاقة للشريعة الموسوية الحقيقة بهذه الآداب والطرق التي قد وصفها القرآن "بالإصر والأغلال" (الأعراف: 156).

إنها الفقه الذي وضعه علماء اليهود التابعون وضموه إلى الكتاب المقدس.

وهكذا فإن "البدعة" التي راجت في المسيحية باسم "الرهبانية" هي التصوف المسيحي الذي لم يأمر به المسيح عليه السلام. إن هذه الأشياء الإضافية التي ظهرت لتعيين الهيكل الخارجي للعبادة اليهودية أو الروحانية المسيحية، قد أصبحت جزأً لا يتجزأ من اليهودية والمسيحية بمرور الزمن، حتى توارى الدين الإلهي الحقيقي عن الأنظار في خضم هذه الإضافات.

أما الخطأ الثاني فنجد له مثلاً في العقائد المسيحية الحالية، كالثلث

والكفارة والإعتقداد بأن المسيح ابن الله..

إن المسيح لم يعلم هذه العقائد في حياته، بل هي غير موجودة حتى في أناجيل متى ومرقص ولوقا ويوحنا. لقد إخترع القديس بولس عقيدة "الكفارة". إنها عقيدة ظهرت بين المتكلمين المسيحيين المتأخرين.. فعندما خرجت المسيحية من حدود الشام بدأ العلماء المسيحيون يبيّنون التعاليم المسيحية باللغة التي تفهمها الشعوب الأخرى، كالمصريين واليونانيين وهذا هو ما يطلق عليه القرآن تعبير "المضاهاة"¹. وأخذت أحاديث وبيانات العلماء المسيحيين تتقمص مسموح القدسية رويداً رويداً إلى أن حصلوا على التأييد السياسي في عهد قسطنطين الأول فبدأوا ينفذون بالقوة هذه المسيحية المستحدثة بدلاً من المسيحية الحقيقة وذلك بواسطة مجلس نيقا الأول سنة 325م.

إن ما يطلق عليه "العقائد المسيحية" هو علم الكلام المسيحي الذي تحول إلى جزء من المسيحية إلى أن أصبح هو الأصل على مر الزمن.

إن الإسلام يعاني اليوم من سائر أنواع "الغبار" الذي تراكم على أديان الأمم السابقة، مع فارق جوهري وهو أن أصول الدين الإسلامي محفوظة من

¹ يصاہون قول الذين كفروا من قبلاً . (الغوبه 30)

التحريف البشري دون سائر الديانات السماوية الأخرى. ولن ينجح الجهد الرامي إلى إحياء الدين الإلهي ما لم يظهر من الغبار البشري.

وكان رسول الله ﷺ قد حذر أمته تحذيرا صريحا بشتى الطرق للوقاية من هذه الفتنة. فكانت آخر نصائحه لنا قبل رحيله إلى الرفيق الأعلى: "تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما قمكتم بهما: كتاب الله وسنة رسوله"¹، ولكن حسبما كان الرسول قد تنبأ بنفسه بذات الإضافات تتراكم على ميراث النبوة في العصور المتأخرة، حتى أحقت بالإسلام في تصورات الناس الساذجة كل تلك الأشياء التي حرفت الأديان السابقة.

ولكن هناك فارق نوعي عظيم بين المثالين، فيبينما أصبحت الإضافات البشرية جزء لا يتجزأ من النصوص السماوية القديمة حتى إن تمييز الجزء السماوي من الإضافة البشرية بات أمرا مستحيلا، فإن الإسلام بالرغم من كل الإضافات، يحافظ على النص السماوي المتمثل في "القرآن" الذي لم يطرأ عليه تحريفاً ما منذ نزوله إلى اليوم. ويمكن لكل شخص اليوم أن يتعرف على الدين الإلهي الحقيقي الخالي من الإضافات البشرية، وذلك بأن يطلع على القرآن.

وسندرس في هذا البحث ثلاثة مداخل رئيسة تسرب الفساد عن طريقها إلى ديننا الحنيف وهي: الفقه والتتصوفة وعلم الكلام. ولا حاجة بنا للتأكد على أن هذه الفنون الثلاثة هي نتاج العصور المتأخرة وكانت مجهولة لصحابة الرسول الكريم ﷺ.

¹ موظ الإمام مالك ، كتاب الجامع ، باب النهي عن القول بالقليل ، الحديث 1619 ، طبعة دار النفاس ، بيروت 1971 ، ص 648.

(1) الفقه

إن الفساد الأول دخل عن طريق (الفقه)¹. وقد كتب الإمام ولي الله الدهلوi يقول في هذا الصدد:

"اعلم أن رسول الله ﷺ لم يكن الفقه في زمانه الشريف مدونا، ولم يكن البحث في الأحكام يومئذ مثل البحث من هؤلاء الفقهاء حيث يبيّنون بأقصى جهدهم الأركان والشروط والآداب لكل شيء ممتازاً عن الآخر بدلبله ويفرضون الصور ويتكلمون على تلك الصور المفروضة، ويحددون ما يقبل الحد ويهصررون ما يقبل الحصر، إلى غير ذلك من صنائعهم. أما رسول الله ﷺ فكان يتوضأ فيري الصحابة وضوءه فإذا أخذذون به من غير أن يبيّن أن هذا ركن وذلك أدب. وكان يصلي فيرون صلاته فيصلون كما رأوه يصلي، وحج فرمق الناس حجه ففعلوا كما فعل. فهذا كان غالب حاله ﷺ، ولم يبيّن أن فروض الوضوء ستة أو أربعة ولم يفرض أنه يتحمل أن يتوضأ إنسان بغير مولاه حتى يحكم عليه بالصحة أو الفساد إلى ما شاء الله، وقلما كانوا يسألونه عن هذه الأشياء. عن ابن عباس رضي الله عنه قال: "ما رأيت قوماً كانوا خيراً من أصحاب رسول الله ﷺ ما سأله إلا عن ثلاثة عشرة مسألة حتى قبض"².

إن القرآن والحديث لم يتتناولوا كلمة (الفقه) بالمفهوم الإصطلاحي الرا�ج اليوم. لقد بدأ تدوين (الفقه) كفن³ عقب القرن الأول عندما تشعبت القضايا التي كان المجتمع الإسلامي العريض يواجهها حين ذاك. فقد كانت رقعة الإسلام تتسع بصورة مستمرة حتى امتدت من حدود الصين إلى تخوم فرنسا، ودخل

1 الفقه المراد به في هذه الفقرة هو فقه العبادات لا غير.

2 حجۃ اللہ البالغہ ، ج 1 ، باب أسباب إخلاف الصحابة والتابعين في الفروع.

3 (الفن) هنا يعني فرع علمي وتفني تطبيقي يمتاز بمصطلحاته وتعابيره الخاصة - المترجم .

عدد لا يحصى من الناس من كل الأجناس إلى الإسلام فبرزت أسئلة وقضايا جديدة، و كان العراق هو المركز الأول للرد على هذه الأسئلة المثارة. واتخذ فقهاء العراق من القياس والإستخراج وسيلة للرد على الأسئلة الجديدة. ولم تكن الأحاديث قد دونت بعد بصورة نهائية، ولم يكن أحد من الفقهاء يتمتع بمجاميع الأحاديث مثلما نتمتع به نحن في مكتباتنا الآن. وهذا هو السبب في أن الفقهاء الأوائل كانوا كثيراً ما يتراجعون عن آرائهم، فنجد الكتب الفقهية مليئة بعبارات مثل:

"هذا رأي أبي حنيفة الأول وأنه رجع عنه".

"هذا مذهب الشافعي القديم وهو في العراق وهذا مذهبه الجديد في مصر".

"وهذه إحدى الروايات عن مالك ((أو عن أحمد بن حنبل))، وهناك روايات أخرى...".

إن حركة تدوين الحديث التي بدأت بصورة واضحة في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري كانت إلى حد كبير رد فعل رجال الحديث على فقهاء العراق. إن حركة تدوين الحديث كانت تقوم على اعتقاد رجال الحديث بأنه يجب أن تستند المسائل إلى الأحاديث والآثار بدلاً من الاستناد إلى الرأي والقياس. ولذلك فإن مجموعات الأحاديث التي دونت في بداية هذه الحركة هي الكتب التي تحوي الأحاديث حول الأحكام الفقهية كموطأ الإمام مالك. أما مجموعات المتأخرین فقد حوت كل أنواع الأحاديث إلا أنها قد رتبت - أيضاً - على غرار الترتيب الفقهي. وكان لهذا المناخ أثره على الإمام البخاري حين أعد خريطة للأبواب الضرورية قبل أن يدون مجموعته، ولذلك فإنك قد تجد عدداً من الأحاديث تحت باب ما من أبواب صحيح البخاري، ولا تجد تحت بعض

الأبواب سوى آية قرآنية، بينما تخلوا بعض الأبواب الأخرى من أي حديث أو آية ! أما فيما يتعلق بالفقه الفني فكان لا يزال ناقصاً بالرغم من تدوين الأحاديث. لقد كانت طرق العبادة واحدة ومتتشابهة لدى صحابة الرسول، لكن الأحاديث دلت على أن هناك بعض الفوارق في الجوانب الهامشية من سلوك بعض الصحابة. فبرز السؤال: ما العمل وكيف يمكن تعين هيكلاً عبادة ما ؟ وانقسم الناس إلى فريقين: المحدثين والفقهاء فقال (المحدثون): يمكن العمل بسلوك أو رأي أي صاحب عملاً بمببدأ القائل: "الصحابة كلهم عدول". يقول أسماء بن زيد: إنني سألت القاسم بن محمد بن أبي بكر عن رأيه في قراءة القرآن خلف الإمام في صلاة غير جهرية فقال: "إن قرأت فلك في رجال من أصحاب رسول الله ﷺ أسوة، وإذا لم تقرأ فلك في رجال من أصحاب رسول الله ﷺ أسوة" ¹. وقد قال عمر بن عبد العزيز "إن أصحاب رسول الله ﷺ لم يختلفوا لأنه لو كانوا قولاً واحداً كان الناس في ضيق. وإنهم أمة يقتدى بهم، فلو أخذ رجل بقول أحدهم كان في سعة" ².

ويذكر محمد بن عبد الرحمن الصيرفي أنه سأله أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلَ: "إِذَا اخْتَلَفَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي مَسَأَةٍ, هَلْ يَحُوزُ لَنَا أَنْ نَنْظُرَ فِي أَقْوَالِهِمْ لَنَعْلَمُ مَنْ الصَّوَابُ مِنْهُمْ فَتَبَعَهُ؟" فَرَدَ عَلَيْهِ ابْنُ حَنْبَلَ رَحْمَهُ اللَّهُ قَاتِلُهُ: "لَا يَحُوزُ النَّظَرَ بَيْنَ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ... تَقْلِدُ أَهِمَّهُمْ أَحَبِبْتَ" ³.

إن إختلاف العلماء حول مسالك المحدثين الفقهية يعزى إلى هذا المنهج الفكري، فالحقيقة أن المحدثين لم يكونوا يسلكون ويتبعون مسلكاً فقهياً بالمعنى المعهود لدينا الآن.

1 جامع بيان العلم وفضله ، ج 2 ص 80.

2 نفس المصدر والصفحة.

3 نفس المصدر ص 83.

أما الفقهاء - أو من أطلق عليهم وصف ((جماعة أهل النظر)) -

فكان رأيهم يختلف عن رأي المحدثين... يقول أبو عمر: إن الأئمة مالكا و الشافعى والليث بن سعد والأوزاعى وأبا ثور وآخرين من الفقهاء كانوا يقولون عن إختلاف الأقوال والأعمال المنسوبة إلى الصحابة الكرام: "إن الإختلاف إذا تدافع فهو خطأ وصواب"¹. وقال الإمام مالك : "مخطئ و مصيب، فعليك بالإجتهاد"² ... "ما الحق إلا واحدا !!، قولان مختلفان يكونا صوابين جميا !!، ما الحق والصواب إلا واحد"³ . ولهذا السبب دعا الفقهاء إلى النظر والقياس في ضوء الكتاب والسنة والإجماع والأصول المسلم بها لترجيح أحد القولين على الآخر.

إنه لا شك في أن رجال الحديث كانوا على الحق في هذا الجدل.. صحيح أنه ينبغي ترجيح قول على آخر في بعض الأحكاب والأمور، فالإختلاف دائما لا يكون من نوعية واحدة. وقد يتطلب الأمر التمييظ والترجيح. وعلى سبيل المثال فقد روى عن النبي ﷺ أنه كان يظن أن بعض الحيوانات (كالفأر و الضب) "من القرون التي مسخت" (مسلم) بينما روى كذلك: "أن الله لم يلعن قوما قط فيمسخهم فكان لهم نسل، ولكن هذا خلق كان" (أبو داود). إنه من الواضح أن قوله واحدا من بين هذين القولين صحيح ولذلك لا بد لنا من ترجيح رواية على أخرى. وهكذا روى عن الرسول ﷺ، قوله عن أولاد المشركين: "هم مع آبائهم" (ابن كثير) بينما روى عنه ﷺ كذلك قوله "المولود في الجنة" (أحمد) كما ردّ الرسول عن سؤال عن أولاد المشركين قائلا: "هم خدم أهل الجنة" (الطبراني). إنه

1 جامع بيان العلم وفضله ، ج 2 ص 80.

2 نفس المصدر صفحة 81.

3 نفس المصدر صفحة 82.

من الطبيعي أن طفلاً ما لن يكون في الجنة والجحيم في آن واحد، ولذلك ينبغي علينا أن نمحض الرويات من هذا النوع ونحاول التوصل للحديث الصحيح.

أما فيما يتعلق بالإختلاف في طرق العبادة فلا يعود أن يكون هامشياً وفرعياً للغاية، بل هو يتعلق بجانب لا يستدعي بالضرورة كون أحد القولين صحيحاً والآخر باطلاً. إن الإختلاف أو الفارق يدل هنا على مدى التنوع والتوسيع وليس على الصحة والبطلان. ولذلك نجد أن صحابياً واحداً يقوم بعمل ما بإسلوبين مختلفين في حياته. فعلى سبيل المثال نجد الإمامين مالكاً والشافعياً يرويان عن عروة أن عمر بن الخطاب، وهو يخطب الجمعة ذات مرة قرأ آية سجدة فنزل عن المنبر وسجد فسجد الناس معه، وفي خطبة الجمعة التالية قرأ آية سجدة ولم ينزل ليسجد فهم الناس أن يسجدوا ولكن نهادهم عن ذلك¹. ويروى كذلك أن عمر بن الخطاب دخل المسجد فصل ركعتين نافلتين، وفي اليوم التالي صلى ركعة واحدة فقط فقالوا له: إنك صليت ركعة واحدة فقط، فرد عليهم قائلاً: "إنها صلاة نافلة من شاء أن يقص ومن شاء زاد"².

ويروى عن عمر الفاروق أيضاً أنه لم يكن يقرأ (بسم الله الرحمن الرحيم) بالجهر في الصلاة، ولكن روي كذلك أنه قرأها بالجهر في بعض الأحيان³. وكان عبدالله بن عباس رضي الله عنه، يعرف أن الرسول أمر الناس في بعض أيام المطر "ألا صلوا في الرحال" ولكن يروى عن ابن عباس نفسه أنه "قال ملؤذته في يوم مطير، يوم الجمعة: إذا قلت (أشهد أن محمداً رسول الله) فلا تقل (حي على الصلاة)، قل (صلوا في بيوتكم). فاستنكر الناس ذلك، فقال فعلها من هو خير

1 الإمام ولي الله المدهلوi، إزالة الخفاء، المقصد الثاني ص 169.

2 الإمام ولي الله المدهلوi، إزالة الخفاء، المقصد الثاني ص 178.

3 الإمام ولي الله المدهلوi، إزالة الخفاء، المقصد الثاني ص 162.

مني (يقصد رسول الله ﷺ) وإني كرهت أن أخرجكم في الطين والدحش".

إن دراسة حياة النبي وصحابته تدل على أن العبادة، وإن كانت عملاً مقرراً فيما يتعلق بهيكلاها الأساسي، إلا أن جزئياتها لم تكن تكراراً رتيباً مثلما نشاهده في المسالك الفقهية المدونة اليوم.

إنه لا شك في أن للعبادة صورها المعينة ولا يمكن أداؤها إلا في إطار هذه الصور والأشكال المقررة. ولكن لأسباب مختلفة كانت التغييرات الطفيفة والجزئية تطراً على هذه الأشكال، الأمر الذي لا يسمح به دعاة المسالك الفقهية اليوم.

إن بعض التغييرات والفوارات قد حدثت لأسباب عرضية طارئة، كالحمل في طواف الكعبة، الذي اعتبره الفقهاء المتأخرون سنّةً، ولكن عبد الله بن عباس يقول: "إِنَّمَا فَعَلَهُ النَّبِيُّ عَلَى سَبِيلِ الْاِتْفَاقِ لِعَارِضِ عَرْضِهِ، وَهُوَ قَوْلُ الْمُشَرِّكِينَ (حَطَّمُتْهُمْ حَمْيَ يَثْرَبْ) وَلَيْسَ بِسُنَّةٍ".

وبعض المتغيرات قد تطراً بسبب الاستغراب في كيفية العبادة. ومن أمثلة ذلك ما رواه الترمذى وأبو داود والنسائى أن رفاعة بن رافع رضي الله عنه عطس، وهو يصلي خلف النبي ﷺ، فقال بالجهر "الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً عليه كما يحب ربنا ويرضى". وبعد انتهاء الصلاة سأله النبي: "من المتكلم في الصلاة" فلم يردد أحد، وعندما كرر النبي سؤاله ثلاثة مرات، قال رفاعة: "أنا يا رسول الله" فقال رسول الله: "والذى نفسي بيده لقد إبتدراها بضعة وثلاثون ملكاً يصعد بها".¹

وبعض الفوارق قد تحدث لأن الأهمية في الإسلام لحقيقة العبادة وليس

¹ مشكاة المصابيح ، باب ما لا يجوز في الصلاة و ما يباح.

لأشكالها المجردة، ولذلك تجاهل الرسول عن بعض الفوارق البسيطة التي تحدث خلال أداء العبادة وأكد على الحقيقة الأساسية للعبادة.

يروي أسامه بن شريك: "خرجت مع رسول الله ﷺ حاجاً فكان الناس يأتونه فمن قائل: يا رسول الله سعيت قبل أن أطوف أو أخرت شيئاً أو قدمت شيئاً، فكان يقول: لا حرج إلا على مسلم افترض عرض مسلم وهو ظالم فذلك الذي حرج وهلك".¹

إن القرآن يؤكد كثيراً على أهمية الصلاة ولكنه لا يحدد شكلها معيناً لها، ونحن نعرف الشكل المعين للصلاحة من السنة النبوية، التي تدلنا، مع تحديدها لأسس الصلاة، على أن هناك تنوعاً وتوسعاً في الجزئيات. وهذا التنوع ليس "نقصاً" في الصلاة حتى نخترع فناً لإصلاحه وتلافيه. إن هذا التنوع دليل على أن الصلاة عمل حي. والعمل الحي لا يخضع للرتابة الآلية. وقد حاول الفقه، بدون لزوم أن يقضي على التنوع والتتوسع الطبيعي ليحل محله نظاماً رتيباً للعبادة. إن هذا التدبير الاصطناعي حرم المصلين من فوائد الصلاة الحقيقة ومتعبتها، فأخذوا يظنون أن الصلاة شئ إضافي كالرياضة، وليست هي المنبع الإلهي المقرر لتزويد الحياة بالطاقة والحيوية التي لابد أن تتحلى بها حياة المسلم.

وإن كان الترجيح وإيجاد الرتابة في فروع العبادات مطلوباً حقاً، فلم يكن السبيل الذي سلكه الفقهاء هو السبيل الصحيح.

فالذي فعلوه هو أن أقام كل فقيه مدرسة خاصة به وعكف على البحث والترجح بجهود ذاتية شخصية. وبما أن التنوع كان موجوداً بالفعل في العبادات، فلم يكن ممكناً لطابع وعقول مختلفة أن تصل ببحوثها إلى نتيجة واحدة بشأن ترجيح شئ على آخر. فحين رجح فقيه ما شيئاً معيناً جاء فقيه

¹ سنن أبي داود ، كتاب المناك ، باب فيين قدم شيئاً قبل شيء من حجته . (و افترض العرض يعني البطل منه بالمعنى فيه)

آخر ليُرجحُ الرأي الآخر المضاد. وهكذا بُرِزَتْ هياكل وصور متعددة للعبادات بينما كان الهدف هو وضع هيكل واحد فقط.

يقول المسيب بن رافع التابعي أن العادة التي جرى عليها الناس (قبل نشوء الفقهاء التقليديين) أنهم كانوا يطلقون اسم "صوافي الأمراء" على أية قضية لا يجدون لها حكما صريحا في القرآن والستة، فكانوا يرفعون الأمر إلى الحكام الذين كانوا بدورهم يجمعون العلماء، فيحكمون بما أجمع عليه العلماء¹.

إنه أسلوب لا يمكن لأحد أن يشذ عنه أو يختلف بشأنه، ثم أن هيبة الدولة تضمن القضاء على الإختلاف. وهذا هو الأسلوب الذي اتبع في صدر الإسلام الأول لتدوين القرآن الكريم. ولو لم يتم هذا العمل تحت إشراف الدولة، ولو عكفت كتبة متعددون على تدوين القرآن باجتهاداتهم الشخصية، ل تعرضت الأمة لخلافات عظيمة ما كانت لتتحمل حتى قيام الساعة. وهكذا لو كان ترتيب القضايا الفقهية أمرا مطلوبا فكان ينبغي أن يتم تحت إشراف الدولة الإسلامية من خلال إدارة أو هيئة للعلماء.

ومن أمثلة ذلك أنه عندما ثار الخلاف بين الصحابة حول عدد تكبيرات صلاة الجنائز جمعهم عمر الفاروق على أربعة تكبيرات² وكان عبد الله بن المقفع قد أشار على الخليفة العباسي المنصور أن يدون قانونا متفقا عليه ويصدره باسم الدولة.

وكان الفقه يهدف في بداية عهده إلى البحث عن الترجيح بين مختلف الروايات والأقوال. ولكن الظروف المتغيرة كانت تثير أسئلة وقضايا جديدة فبدأ الفقهاء يستخرجون أحكاما جديدة بناء على الأحكام المعروفة السابقة. وهكذا

1 جامع بيان العلم ، ج 2 ، ص 144

2 جامع بيان العلم ، ج 2 ص 85.

بدأ عهد جديد في تاريخ الفقه: عهد التخريج بعد عهد الترجيح. يقول الإمام علي الله الدهلوi عن هذا التطور: "فلما مهدوا الفقه على هذه القواعد فلم تكن مسألة من المسائل التي تكلم فيها من قبلهم والتي وقعت في زمانهم إلا وجدوا فيها حديثا. ثم أنشأ الله تعالى قرنا آخر... فوقع تدوين الحديث والفقه والمسائل من حاجتهم بموقع من وجه آخر وذلك أنه لم يكن عندهم من الأحاديث والآثار ما يقدرون به على إستبطاط الفقه على الأصول التي إختارها أهل الحديث، فمهدوا الفقه على قاعدة التخريج".¹

إن الاعتماد على أسلوب (التخريج) في تدوين الشئون القانونية والمعاملات كان صحيحا لأن الأسئلة والقضايا المستجدة تثور باستمرار في المعاملات والقوانين ولا مناص من اللجوء إلى القياس والاجتهداد لحلها. أما توسيع قاعدة التخريج حتى شملت العبادات فكان خطأ اجتهادي أحال العبادات إلى "فن" .. وكان لإستحداث مسائل فقهية جديدة أن أصبح الدين فنا معقدا لا يعرفه أو يجيده إلا خبير الفقه، بينما كان الرسول قد أخبرنا أن الدين الذي جاء به سهل ميسور "بعثت بالحنينية السمحنة". وعكف الفقهاء على التفريعات في مسائل العبادة تماما كما يحدث للفنون من تفريعات وتحديث... " ومنها أن أقبل أكثرهم على التعمقات في كل فن..... ومنهم من كثر القيل والقال في أصول الفقه، فاستقصى وأجاد، ونقصى وعرف وقسم".²

وقد أدى هذا النهج إلى الخوض في مسائل تعبدية لم تكن معهودة في زمن الصحابة.. حين وصل الإمام الشافعي إلى الكوفة لأول مرة، لم يستسخ في المسجد صلاة أحد الشبان، فقال له: "أحسن الصلاة حتى لا يعذب الله وجهك الجميل في النار" ، فرد عليه الشاب قائلا إنني أصلي في هذا المسجد منذ خمس

1 حجۃ الله البالغة ، ج 1 ، ص 348 – 353

2 حجۃ الله البالغة ، ج 1 ، ص 259

عشرة سنة أمام محمد بن حسن وأبي يوسف، ولكنهما لم يقولا شيئاً وأنت تعيب علي صلاتي. وكان الإمامان متواجدان في ذلك الوقت خارج المسجد، فتوجه الشاب إليهما وسألهما: هل رأيتما فساداً في صلاتي، فأجاباه قائلين: لا والله! فأخبرهما الشاب أن شخصاً بالمسجد قد اعترض على صلاته. فقال له: اذهب إليه واسأله: كيف تدخل في الصلاة فعاد الشاب إلى الإمام الشافعى وسألة: يا من عاب علي صلاتي بم تدخل في الصلاة؟، فأجابه الشافعى "بفرضين وسنة". ورجع الشاب وأخبر الإمامين برد الشافعى فقالا: إنه رد شخص له باع في العلم، ثم أرسل الشاب يسأل الشافعى مرة أخرى: "ما الفرضان وما السنة" فأجاب الشافعى: "إن الفرض الأول هو النية والآخر هو تكبير التحرير، أما السنة فهي رفع اليدين".¹

إنه لو كان الأمر يتعلق بصحابيي من صحابة الرسول ﷺ لما دار النقاش بهذا الأسلوب من الأسئلة والأجوبة.

يروي الفضل بن موسى أن المحدث المشهور الأعمش (-147هـ) مرض ذات مرة فذهب أبو حنيفة لعيادته ومعه الفضل بن موسى. وقال أبو حنيفة للأعمش: "يا أبا محمد لولا التثقيل عليك لزدت في عيادتك"، فقال الأعمش: "والله إنك على لثقيل وأنت في بيتك فكيف إذا دخلت عليّ". وعقب الخروج قال أبو حنيفة للفضل: "إن الأعمش لم يصم رمضان قط ولم يغتسل من جنابة" (وكان الأعمش يرى الماء من الماء ويتسحر على حديث حذيفة)²

وقال أبو حنيفة هذا الكلام الخطير لمجرد أن الأعمش كان يخالفه الرأي في مسألتي تناول السحور والإغتسال. إنه ملن المستبعد أن تتوقع من صحابي أن

¹ رحلة الإمام الشافعى ، المطبعة السلفية ، القاهرة ، 1350 هـ ، ص 13 – 14 .

² ابن عبد البر ، جامع بيان العلم وفضله ، ج 2 ، ص 157 .

يصدر أحكاما من هذا النوع طجرا الخلاف في مسائل فرعية - وهذا مع إجلالنا الكامل وثقتنا في شخصية أبي حنيفة !!

وقد ترتب على الانغماط في هذا النوع من المباحث والمسائل أن ظهر إلى الوجود فن كان يجهله أصحاب الرسول ﷺ، فلم يكن أحد منهم يدري أن "الوضوء يشمل أربعا من الفرائض و 13 من السنن و 8 من المستحبات" .. إن المعايير الفنية التي اختلفوا فيها لعلم الدين قد أدت في بعض الأحيان إلى ظهور أشياء غريبة جدا. ومن نموذج هذه الأشياء قول أبي حنيفة للإمام الأوزاعي (م: 157هـ): "لولا فضل الصحابة (يقصد صحبة النبي) لقلت إن علامة أفقه من عبد الله بن عمر"¹ ... ما كان مثل هذا الخاطر ليجول في عقل أبي حنيفة لولا ظنه أن عبد الله بن عمر متختلف عن علامة في الفن الذي راج في عصر أبي حنيفة باسم "الفقه" .. وهذه العقلية قد ظهرت في بعض الأحيان على شكل أكثر جرأة، فعلى سبيل المثال كان (الضحاك) يكره "المسك" فقيل له أن أصحاب النبي ﷺ كانوا يتطهرون بالمسك فرد الضحاك قائلا: "نحن أعلم منهم"².

لقد كان الصحابة يتحاشون الرد على الأسئلة وكانوا يثبطون الأسئلة الجديدة³ .. أما حين ازدهر فن الفقه ظهر أناس يختلفون في أسئلة فرعية ويجهدون أنفسهم للحصول على الردود عليها، وعلى سبيل المثال: "سئل الإمام الجنيد رحمة الله عن رجل شافعي المذهب ترك الصلاة سنة أو سنتين ثم انتقل إلى مذهب أبي حنيفة: كيف يجب عليه القضاء، أيقضيها على مذهب الشافعي

2 حجة الله البالغة، ص 327.

2 جامع بيان العلم وفضله، ج 2، ص 100.

3 و من أمثلة ذلك رواية خارجة بن زيد بن ثابت: ((كان زيد إذا سئل عن شئ قال: هل وقع؟ فإن قالوا له: لم يقع، لم يخبرهم. وإن قالوا: قد وقع، أخبرهم)) .. وعن مسروق قال: ((كنت أمشي مع أبي بن كعب فقال له رجل يا عماء كذا وكذا .. فقال يا بن أخي أكان هذا؟ قال: لا، قال فاغفنا حتى يكون)). (أعلام المؤمنين، ج 1، ص 61).

أو على مذهب أبي حنيفة^١. إن هذه الأشياء كانت منعدمة ومجهولة في عهد الصحابة الكرام، ولو أن سؤالاً كالسؤال الآنف الذكر، طرح على أحد من الصحابة للعن السائل ووبخه قائلاً: هل ت يريد أن تحول دين محمد إلى اليهودية ! ولكن وصل الأمر في القرون المتأخرة إلى تجربة الناس على الإكثار من هذه الأسئلة ورد الفقهاء عليها بكل افتخار لأنهم جعلوا من الفقه "أعظم علم" من علوم الإسلام.. ويقول الإمام ولي الله الدهلوi عن هذه الظاهرة التي أصابت المسلمين منذ ظهور الفقهاء: "وكان بعدهم قوم لا يكرهون المسائل ولا يهابون الفتيا ويقولون: على الفقهاء بناء الدين فلابد من إشاعته"^٢.

وبظهور هذه الأشياء بُرِزَ خلاف شديد بين رجال الحديث (المحدثين) وأصحاب الرأي والقياس (الفقهاء).

وراجت بين المحدثين رواية أبي هريرة عن الرسول ﷺ أنه قال: "تعمل هذه الأمة ببرهه بكتاب الله وبرهه بسنة رسول الله ﷺ ثم يعملون بالرأي فإذا فعلوا ذلك فقد ضلوا" (رواه أبو يعلي في مسنده)^٣. وقال القاسم بن محمد بن أبي بكر محتاجاً على سلوك الفقهاء: "إنكم تسألون عن أشياء ما كنا نسأل عنها وتنقرنون عن أشياء ما كنا ننقر عنها"^٤.

وبسبب الخوض الفقهي والتنقير ابتدع الفقهاء أحكاماً ومسائل في العبادات كان يجهلها صحابة الرسول الكرام... وتوسعوا في فقه العبادات على حساب فقه المعاملات، فانزعج أهل العلم.. فيروي أن الإمام الأوزاعي (- 157 هـ) قال لبقية بن الوليد: "العلم ما جاء عن أصحاب محمد، وما لم يجيئ عن واحد منهم فليس

١ حجة الله البالغة ، ص 378.

٢ حجة الله البالغة ، ص 352.

٣ جامع بيان العلم وفضله ، ج 2 ، ص 134.

٤ حجة الله البالغة ، ص 317 .

يعلم"¹. وقال سعيد بن جبير التابعي: "ما لم يعرفه البدريون فليس من الدين"².
وقال أحد الشعراء في قصيدة طويلة:

قد نقر الناس حتى أحذثوا بداعا
في الدين، بالرأي، لم تبعث بها الرسل³

ويروي عبد الله بن مسلمة القعنبي أنه ذهب ذات مرة إلى الإمام مالك فوجده يبكي فسلم عليه فرد عليه مالك ثم سكت عنه يبكي، فسألته عبد الله: ما الذي يبكيك؟ فقال له الإمام مالك: "يا بن قحنب أنا أبكي الله على ما فرط مني، ليتنى جلدت بكل كلمة تكلمت بها في هذا الأمر بسوط، ولم يكن فرط مني ما فرط من هذا الرأي و هذه المسائل..."⁴.

ويقول الإمام مالك: "لم يكن من أمر الناس ولا من مضى من سلفنا، ولا أدركت أحداً أقتدي به يقول في شيء: هذا حلال وهذا حرام، ما كانوا يجتئون على ذلك، وإنما كانوا يقولون نكره هذا ونرى هذا حسناً، ونتقي هذا ولا نرى هذا..."⁵.

ويروي عبد الله بن مسلمه القرشي أنه سمع الإمام مالكا يقول: "ما زال هذا الأمر معتملاً حتى نشأ أبو حنيفة فأخذ فيهم بالقياس فما أفلح ولا أنجح"⁶.

وروى خالد عن بن نزار عن الإمام مالك أنه قال: "لو خرج أبو حنيفة على

1 جامع بيان العلم وفضله، ج 2، ص 29.

2 جامع بيان العلم وفضله، ج 2، ص 97.

3 جامع بيان العلم وفضله، ج 2، ص 98.

4 جامع بيان العلم وفضله، ج 2، ص 145.

5 جامع بيان العلم وفضله، ج 2، ص 146.

6 جامع بيان العلم وفضله، ج 2، ص 147.

هذه الأمة بالسيف كان أيسر عليهم مما ظهر فيهم يعني من القياس والرأي^١.
وقال ابن عيينة: "لم يزل أمر أهل الكوفة معتدلا حتى نشأ فيهم أبو حنيفة"^٢.

وحيث تولى الإمام أبو يوسف (-182هـ) القضاء في عهد هارون الرشيد برز عامل مادي لرواج الفقه على مذهب معين. وكانت النتيجة رواج الفقه الحنفي والقضاء به في أرجاء الدولة العباسية المترامية الأطراف. ووصل الأمر بالناس إلى أن بدأوا يدرسون الفقه بصفة خاصة، للتوصل إلى تقلد الوظائف الحكومية. ومما قاله محمود بن حسن الوراق (م. نحو 225هـ/840م) في قصيدة طويلة بهذا الشأن:

زمرا إلى باب الخليفة	ركبوا المراكب واغتدوا
ليبلغوا الرتب الشريفة	وصلوا البكور إلى الرواح
طلبوا في الحال اللطيفة	حتى إذا ظفروا بما
فرحا بما تحوي الصحفة	وغدا المولى من منهم
بالظلم والسير العنيفة	وتعسفا من تحتهم
اتسعت قصورهم المنيفة	ضاقت قبور القوم
وآراء حصيفة	من كل ذي أدب و معرفة
إلى قياس أبي حنيفة	متفرقة جمع الحديث
بلحية فوق الوظيفة	فأناك يصلح للقضاء

١ جامع بيان العلم و فضله ، ج ٢ ، ص ١٤٧ (و إن كنا نرى أن الآثار السلبية جاءت من المتعصبين .. و ليست من الأئمة) .

٢ جامع بيان العلم و فضله ، ج ٢ ، ص ١٤٧ (ذلك لأن أهل الكوفة حولوا الأمر إلى تهسب و إخلاف) .

لم ينتفع بالعلم إذ

نسى الإله ولا ذ في

الدنيا بأسباب ضعيفة¹

إنه لا شك أن مؤسسي المذاهب الفقهية الأوائل لم يكونوا يشعرون بالعصبية المذهبية التي ظهرت فيما بعد.

والحقيقة هي أن العصبية المذهبية كانت هي النتيجة الحتمية لتقسيم فقه العبادات إلى مذاهب مختلفة. والتاريخ البشري شاهد على حساسية الإنسان إزاء قضايا ما بعد الطبيعة أي القضايا التي لا يمكن تحكيم العقل بشأنها. إن خلافاً صغيراً جداً في القضايا العقائدية يكفي لإقامة جدار عال جداً بين طائفتين من البشر.

إن الخلافات في تفسير القوانين أمر عادي لا مفر منه بين علماء القانون كالخلاف في أسلوب القصاص، فقد ذهب الشافعي استناداً على الآية (60) من سورة (الحج) "ذلك ومن عاقب به...", إلى أن القصاص سيكون على نفس أسلوب الظلم الذي وقع على المظلوم فلو قتل أحد ضحيته غرقاً بالمياه فسيقتصر منه بقتله غرقاً. ولو قتل أحد ضحيته حرقاً فسيحرق.. أما الحنفية فلا يقرنون هذا الرأي وهم يقولون أن القصاص سيكون على الطريقة المعهودة مهما كان أسلوب القتل أو الظلم. إن مثل هذا الخلاف لا يؤدي إلى التفريق والتحزب، أما الخلاف البسيط جداً في المسائل التعبدية العقائدية فهو يؤدي إلى بناء مسجد جديد إلى جانب المسجد القديم مجرد أن اختلف المصلون حول مسألة اصطفاف المصلين قبل الإقامة أو عندما يقال: "قد قامت الصلاة" ! وقد صدق من قال "الخلاف في الدين ينتج من الخصومة أكثر مما

1. جامع بيان العلم وفضله، ج 1، ص 166.

ينتجه الخلاف في السياسة".

إنه ليس من المبالغة أن أقول: إن السبب الأكبر الوحيد في الخلاف بين المسلمين هو الخلاف التعبدى الذى دوّن في كتب فقهية مغایرة ومتباينة. إن الخلاف التعبدى في حقيقته كان أمرا هامشيا جدا في البداية ولم يكن له من أهمية تذكر. والشىء الذى بدأ الفقهاء يبحثون عنه في الروايات "المتعارضة" لغرض الترجيح والتفضيل هو أمر ليس من الأهمية بمكان في القضايا التعبدية لأن مثل هذا التعارض لا يدل إلا على الرحب والتنوع في الأشكال الهامشية الإضافية للعبادات، فهو لا يدل مطلقا على اختلاف وتعارض يتطلب الجهد العلمي للقضاء عليه. وقد أدى هذا الإتجاه إلى خسارة أخرى كبيرة وهي أنه بالرغم من أن الفقهاء الأوائل كانوا لا يهدفون إلا إلى تقديم هيكل جاهز كامل لتسهيل العبادات، إلا أن المتأخرین ظنوا أن العبادة ليست إلا التكرار الرتيب لعمليات تعبدية معينة تعينا دقيقا لا أكثر... وهكذا أصبح "شكل" العبادة وليس "حقيقة" العبادة، هو هدف الناس ومطلوبهم عمليا، إن لم يكن عقديا.

إن فقه العبادات على صورته الحالية أعطى المسلمين هديتين، إحداهما (الجمود) وثانيهما (الاختلاف). وقد ظهر "أهل الحديث"¹ للقضاء على هذا الفساد الفقهي، ولكنهم تسببوا في بروز جماعة هي أشد وأخطر من أي جماعة فقهية أخرى. والسبب في ذلك أنهم أعادوا الخطأ نفسه الذي إرتكبه الناس من قبلهم.. فهم لم يقبلوا التنوع الموجود في بعض الأمور التعبدية الهامشية مثل قول: "آمين" جهرا أو سرا، وقراءة الفاتحة خلف الإمام أو عدم قراءتها.. إن هؤلاء، بدلا من الإعتراف بالتنوع والمرونة في هذه الأمور الهامشية، بدأوا يجتهدون لترجيح رأى على آخر، و لإثبات رواية لإبطال رواية أخرى، وذلك لكي

1 ((أهل الحديث)) طانقة إسلامية في شبه القارة الهندية . و هم ، كالسلفيين في بعض البلاد العربية ، يرفضون التغى بمذهب من مذاهب الفقه الأربعة المعروفة - المترجم

ينشئوا نظامهم التعبدية "الأشح" من أنظمة غيرهم. إن جهداً كهذا لم يكن ليؤدي إلا إلى بروز فرقة جديدة، وهو الأمر الذي حدث بالفعل... !!

الحل

إن الحل الوحيد لإصلاح هذا الوضع هو فصل فقه (العبادات) عن فقه (المعاملات)، مثلما كان الأمر حتى القرن الثاني الهجري.

إن الاجتهاد والتتوسيع في فقه المعاملات ليس جائزاً فحسب بل هو أمر مطلوب جداً. أما فقه العبادات فلابد أن يبقى محدوداً بجمع وترتيب الأحاديث الصحيحة، بدون ترجيح أو تخريج. وكلما كانت هناك أكثر من طريقة واحدة لتأدية عبادة ما أو جزء منها، فلابد من حصر كل الطرق مع مراجعتها دون بذل الجهد لترجيح طريقة على أخرى.. بل دون التدخل !!

لقد أراد هارون الرشيد ذات مرة أن يأمر الناس باتباع المذهب المالكي فلم يأذن له الإمام مالك بل قال للخليفة: "لا تفعل، فإن أصحاب رسول الله ﷺ إختلفوا في الفروع".

وإذا كان إختلاف صحابة الرسول في الفروع لم يكن يحول دون تأدیتهم العبادات بصورة جماعية، فكيف نستسيغ أن نستحدث في الدين أمور بحجة "الضرورة"، تقلل باب التوسيع والتنوع الذي أعطاه الله ورسوله لنا ؟ إن هذا العمل منا غير مطلوب لأنه بالرغم من هذه الخلافات والتنوع في الفروع كان الصحابة الكرام بنياناً مرصوصاً.. أما حين صيغ نظام معين ومحدود، بالقضاء على هذه الخلافات والتنوع، وقع بين الأمة خلاف لم ينته حتى يوم الناس هذا.

والأمر الآخر المطلوب هو تغيير المناهج التي تدرس حالياً بمدارسنا الدينية. إن هذه المؤسسة هي العامل الذي يعمل على إبقاء هذا المنكر في الأمة. إن

مدارسنا الدينية على هيئتها الحالية ليست إلا وسيلة لإثبات المذهب الفقهي الخاص بها، باستخدام القرآن والسنة والقياس... حين حضر السيد رشيد رضا إلى الهند سنة 1330 هـ ذهب إلى دار العلوم بدبيوند. وهناك في حفل الاستقبال سأله أستاذًا بدار العلوم عن أسلوب تدريس الأحاديث فأخبره ذلك الأستاذ أن المحدث يذكر النكبات العلمية بعد قراءة الحديث، ولو ظهر أن الحديث يخالف المذهب الحنفي بادئ الرأي، فهو يسعى لإثبات مطابقة الحديث للمذهب الحنفي.. فسأل رشيد رضا: هل هذا يحدث مع جميع الأحاديث ؟ فأجابوه بنعم. فاستغرب الرجل هذا الأمر، وقال: طبقاً لرواية الشيخ محمد يوسف بنوري (1908-1977): "هل الحديث حنفي ؟ وكيف يمكن ذلك، وهل هذا إلا عصبية ما لها من سلطان" ¹.

وكان الشيخ أنور شاه الكشميري هو أستاذ الحديث بدار العلوم آنذاك، وحين وصله هذا الخبر جعل منه موضوع الخطبة التي ألقاها في استقبال الزائر و"أثبت" أن جميع الأحاديث تطابق الفقه الحنفي.. إلا أن الشيخ أنور شاه الكشميري (1875-1934) كان قد أدرك في نهاية عمره هذا الخطأ المنهجي في المدارس الدينية.

وقد روى عنه تلميذه الشيخ المفتي محمد شفيع (1897-1976) في كتابه "وحدة الأمة" أنه قال له: "إن خلاصة جميع جهودنا هي أن نرجح المذهب الحنفي على جميع المذاهب الأخرى. ولكن ما فائدة هذه الجهود كلها ؟ فهذه الجهود لا تعني أكثر من أن مذهبنا صواب محتمل الخطأ ومذهب الآخرين خطأ محتمل الصواب فنحن نستطيع أن نقول بعد كل الجهد والتحقيق، إن هذا الأمر صحيح بينما الاحتمال قائم أن يكون هذا الأمر خطأ، أو أن هذا الأمر

¹ الشيخ محمد يوسف بنوري ، نفحات العبر ، ص 71 .

خطأً مع احتمال أن يكون صحيحاً. إن (منكراً ونكيراً) لن يسألنا عما إذا كان رفع اليدين هو الصواب أو أن ترك رفع اليدين هو الحق، أو أن قول (آمين) بالجهر صواب أو أن قوله بالسر هو الحق؟.. إننا قد أضمننا عمرنا وراء شيء لا يجدي نفعاً في الدنيا والآخرة.. أما دعوة الإسلام الصحيحة التي جاء بها الأنبياء فنحن لا ندعوا إليها، بل نحن مشغولون عنها بالأبحاث الفرعية¹.

إن مدارستنا الدينية مهما كان المذهب الفقهي الذي تدين به، إلا أن منصب شيخ الحديث بكل منها محجوز لمثل هذه الفهلوة الفقهية. إن الذي يتخرج في هذه المدارس يحمل شهادة "عالم الدين" بينما هو في حقيقة الأمر "عالم الشقاق" فهو يظن أن غاية علمه الديني تحصر في إثبات أحقيته مذهب الفقهي إزاء المذاهب الأخرى.. إن أمثل هذا العالم يقيمون المسارح بإثارة قضايا دينية بسيطة وغير هامة ويزجون بالآمة في جدال ونزاع لا ينتهي أبداً.

ثم إن هؤلاء بتحويلهم الفوارق الفقهية البسيطة جداً إلى منزلة "أهم المسائل الدينية" يدفعون عامة الناس إلى الظن بأن العبادة ليست سوى الإعادة والتكرار الريتيب بصور وأشكال معينة دون أشكال معينة أخرى².. وما لم يتوقف تخرير هذا النوع من "العلماء" في المدارس الدينية لا يمكن إصلاح حال الآمة.

إن أقل ما يمكن القول عن هذه المدارس أنها حولت (الآمة الواحدة) إلى آمة مختلفة على نفسها، وتنطبق عليها الآية القرآنية:

"من الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيئاً كل حزب بما لديهم فرّحون"³.

1 المفتي محمد ضفيع، ((وحدث أمت)) (بالأردية)، مكتبة المغير، فصل آباد، باكستان.

2 أي دون أن يكون لهذه العادات دورها التربوي في إعداد المسلم، ودون أن يكون لقلبه وروحه ووجدانه نصب في هذه العادات.. ولا يعني هذا أي تدخل من الإنسان في العادات بل تأخذها كما وردت دون تصبّر لرأي.

3 الروم : 32 .

(2) التصوف

والفساد الثاني دخل إلى الإسلام عن طريق التصوف. ولعل أول شخص سمي (صوفيا) في الإسلام هو أبوهاشم الصوفي (ـ150 هـ). ولكن الصوفي آنذاك كان من يغالي في الزهد والعبادة. ولأن الصوفية كانوا يبنذون الملابس الجيدة المريحة ويلبسون ملابس الصوف الخشنة أصبح الناس يطلقون عليهم صفة (الصوفي).. ثم بدأوا يصوغون قواعد التصوف ومصطلحاته، إلى أن أصبح التصوف في القرن الثالث الهجري (فنا روحانيا) قائماً بذاته في الإسلام. وكانت الفلسفة الإشراقية والرهبانية والفيدانة¹ تحمل مواد غزيرة لهذا الفن الجديد، وهكذا ظهر إلى الوجود شئ بفعل عناصر أجنبية، يحمل علامة الإسلام بينما هو في حقيقته دين جديد مواز صيغ داخل الإسلام ليكون ندّاً للإسلام.

ومن التصوف ما يسمى (بالباطنية)، فقد ظهر أناس في القرن الثالث الهجري وخصوصاً في إيران، وقالوا (إن للقرآن ظاهراً وباطناً وأمرنا بباطنه)، ولهذا سموا بالباطنية. وقد أجمع علماء الأمة على أن هذه جماعة من الزنادقة الذين وضعوا هذه النظرية لإخفاء إباحتهم وفسقهم، فكانوا يقولون: (الصوفي لا مذهب له). وحين قيل لأحد الباطنيين: (ألا تصلي؟) قال: (أنتم مع أورادكم ونحن مع وراداتنا).. وهؤلاء يؤمنون بأن (التكليف خاص بالعوام، ساقط على الخواص). من هؤلاء أيضاً القائلون بالحلول والاتحاد فهم يقولون أن الله يحل في السالك حين يصل إلى آخر منازل سلوكه فلا يبقى بينه وبين الله فارق فيصح له القول: (هو أنا، وأنا هو).. ومنها أيضاً نظرية (وحدة الوجود) التي قال أبو حسين الحلاج بوجبها: (ما في الجهة إلا الله) فأفتي العلماء ببردته فقتل في عهد المقىدر سنة 301 هـ ومنها كذلك طرق التصوف التي تقول بأن سماع

¹ الفيدانات هي إحدى مدارس الفلسفة الهندوسية الستة، تؤمن بوحدة الوجود (المترجم)

الموسيقى والرقص وسيلة للتوصل إلى الله. ومن هؤلاء أيضا القائلون بأن اللواط وسيلة للتقرب إلى الله، وهم الذين وضعوا دينا يقول: "رأيت ربي في صورة شاب أمرد" ... إلا أنني لن أناقش صورة من صور هذا النوع من التصوف والصوفية، فقد أجمع العلماء على ضلالهم. إنني سوف أقصر مناقشتي على الطريقة الصوفية التي حظيت لدى البعض بقبول عام والتي لا يزال أناس كثيرون يظنون أنها أقرب سبلهم إلى الهدى والنجاة. ولهذه الطريقة الصوفية نوعان:

أحدهما: الإضافة العددية في الطرق التعبدية المنسنة.

وثانيهما: الإضافة النوعية في الطرق التعبدية المنسنة.

وقد قال أبو القاسم جنيد البغدادي (- 297هـ): "مذهبنا هذا مقيد بالكتاب والسنة".

إن هذا النوع من التصوف وحده كان رائجا بين صوفية العصر الأول، هذا إن كان يصح وصفهم بالصوفية. إن هؤلاء لم يحافظوا على المقادير التي حافظ عليها رسول الله ﷺ في طرق العبادات المنسنة. وعلى سبيل المثال فإن رسول الله ﷺ إلى جانب الصلوات الخمس، كان يصلي بضع ركعات في آخر الليل (إحدى عشر ركعة عموماً)، أما الصوفية فبدأوا يصلون الليل كله. وكان رسول الله ﷺ إلى جانب صوم رمضان، يصوم بضعة أيام من كل شهر، فشرع هؤلاء يصومون صوم الوصال. وكان رسول الله ﷺ يقرأ بعضا من القرآن في أوقات معينة، أما هؤلاء فيقرأون القرآن في معظم الأوقات، حتى روى الإمام النووي (إن كانت روایته هذه صحيحة) أن بعض الناس كانوا يختمون القرآن ثمان مرات يومياً... إلخ...

وكان رسول الله ﷺ قد حظر هذا النوع من الإضافة حظرا صريحا، فقد روى البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه: "جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج

النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ، فلما أخبروا كأنهم تقالوها (أي اعتبروها قليلة)، فقالوا: وأين نحن من رسول الله ﷺ، وقد غفر ما تقدم من ذنبه وما تأخر. فقال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبدا، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر. وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا. فجاء رسول الله ﷺ فقال: أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ ! أما والله إني لأشاككم الله وأنقاكم له، ولكنني أصوم وأفطر وأصلي وأرقد وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني¹.

وجاء في رواية أخرى لابن جرير و عبد الرزاق و بن المنذر عن أبي قلابة قال:

"أراد ناس من أصحاب النبي ﷺ أن يرفضوا الدنيا ويترکوا النساء ويترهبو، فقام رسول الله ﷺ فخلط فيهم المقالة ثم قال: إنما هلك من كان قبلكم بالتشدید، شددوا على أنفسهم فشدّ الله عليهم. فأولئك بقایاهم في الديار والصومع. عبدوا الله ولا تشرکوا به شيئا وحجوا واعتمروا واستقیموا يستقم بكم".

ويمكنك أن ترى خلاصة المكتبة التي وضعت دفاعا عن هؤلاء "العباد والزهاد" في كتاب الشيخ عبد الحي الكنوي (1204-1264 هـ): "إقامة الحجة على أن الإكثار في التعبيد ليس ببدعة"².

ولا شك في أنه لا قيمة للأدلة التي توردها مثل هذه الكتب إلا لو إفترضنا بصورة مسبقة أن أعمال "الأكابر" المشار إليهم صحيحة بصورة لا يرقى إليها الشك وإحتمال مجانية الصواب. أما لو نبذت هذا الإفتراض المسبق فسترى أن هذه الأدلة والبراهين ليست ذات قيمة من الناحية العلمية. ويقال على سبيل المثال أن "الرسول ﷺ" كان يترك كثرة العبادات شفقة على أمته ورحمة على

1 رواه البخاري و مسلم.

2 نشر بحلب ، سنة 1966 .

أتباعه لثلا يتحرجو باتبعاه في ذلك" .. إن وهن هذا الإستدلال يتضح حين نقارن موقف النبي ﷺ إزاء قضية الدعوة. فلو كان إعتدال الناس في العبادة شفقة بأتبعاه فلماذا ترك لنا سنة "لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين" ¹.

إن الحقيقة هي أن الله تعالى لا يطلب من عباده أن يقوموا بالبطولات الوهمية لأن يصلوا الفجر بوضوء المغرب لمدة خمسين سنة على التوالي، أو لأن يختتموا القرآن ثمانين مرات في اليوم الواحد.. إن إخضاع الجسد للمشاق التي لا لزوم لها أو الإعادة الرتيبة لأشكال تعبدية معينة ليل نهار، ليس من الأمور المطلوبة عند الله تعالى. إن غاية ما يطلبه الله تعالى من عباده هو من الناحية الداخلية أن يكونوا مغمورين بحبه ومخافته تعالى. والمطلوب من الناحية الخارجية أن تكون جميع أنشطتهم العملية مطابقة لتعاليم الله وأحكامه، من جهة، وأن يسعوا قدر جدهم لإدخال العباد الآخرين إلى دائرة الطاعة لله، من جهة أخرى. ولو افترضنا أن قصص الإكثار من العبادة، التي تروي عن بعض "الأكابر" هي قصص صحيحة، فسلوکهم هذا ليس هو الدين الذي جاء به النبي العربي محمد ﷺ والذي يوجد محفوظا لدينا حفظا كاملا في صورة القرآن الكريم والسنة النبوية. إن هذه البطولات المنسوبة عن المتأخرین لا تمت إلى الهدي المحمدي بأية صلة، ما في ذلك من شك.. إلا أن من علامات عصور الإنحطاط أن تنتفي الجرأة لنقد الرجال وتقويم أخطائهم. ولذلك بدأ عندنا التبرير، بل وحتى استحسان هذه الأعمال بدلا من إستنكارها، حتى أصبحت رويدا رويدا أعمالا مقدسة وتعذر التفكير عن إمكانية وجود نقص أو خطأ بها. إن قسوة الحافظ الذهبي (748 هـ) وابن تيمية (728 هـ) على الصوفية معروفة، و لكنهما أيضا ينقلان قصص الإكثار من العبادة دون نقد في سياق الحديث عن شخصية ما.. بينما تكون هذه القصص من الناحية الواقعية، بدون

أساس عموماً، أما الدين فلا علاقة له بهذه القصص البة. وهذا ينسحب على معظم مكتبتنا.

أما الصورة الأخرى من التصوف، وهي الإضافة النوعية في العبادات، فهي أخطر وأشنع من الصورة الأولى. وإذا كانت الصورة الأولى (إعتداء)¹ في المصطلح القرآني، فالصورة الأخرى (إبتداع)² والمعلوم أن الإحداث والإبتداع في الدين، مهما كان عن نية حسنة صادقة، فهو أمر مردود ومرفوض قطعاً ومطلقاً. فقد روى البخاري ومسلم عن النبي ﷺ قوله: "من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد". وقد كتب إمام زاده جوغي السمرقندى (- 572 هـ) في كتابه "شريعة الإسلام" عن الصحابة أنهم كانوا: "ينكرو أشد الإنكار على من أحدث أو إبتدع رسمماً لم يتعهدوا في عهد النبوة، قل ذلك أو كثراً، صغر ذلك أو كبر".³

إن هذا الإنكار الشديد من الصحابة الكرام كان إزاء العبادات، وليس إزاء المعاملات. فالمعاملات البشرية ذات علاقة عميقة بالدنيا، وهي لا تستقر ولا تبقى على وطيرة معينة ولذلك أجيزة بكل صراحة أن يتوصل المؤمنون إلى حلول جديدة، وهو الأمر الذي أشار إليه القرآن "بالاستبatement"⁴ وأشير إليه "بالاجتهداد" في حديث معاذ بن جبل.

أما العبادة فتتعلق بسلوك البشر إزاء الوجود الإلهي الأزلي والأبدى الذي لا يتغير ولا يتعرض للإضافة والنقاصان. إنه يمكن مراعاة ظروف عبد ما نظراً لمرض أو عاهة أو بسبب الحكمة التدريجية، ولكن لا يمكن الإنقصاص أو الإضافة في العبادات بناءً على القياس البشري. إنه لا سبيل في العبادات إلا الإتباع. وقد قال

1 ((ادعوا ربكم تصرعوا وخفة انه لا يحب المعنين)) : الأعراف : 55.

2 ((و رجاءة ابتدعواها ما كتبناها عليهم)) : الحديدة : 27.

3 شريعة الإسلام ، ص 9.

4 ((ولو رثيده إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستশطونه)) النساء : 83.

عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: "اتبعوا ولا تبتعدوا" .. أما المعاملات فكانت تخضع للاجتهاد دائماً ولم ينكر ذلك أحد من الصحابة الذين لم يكونوا يتحملون أي جديد في العبادة.. يقول ابن الصحابي عبد الله بن مغفل: "سمعني أبي وأنا في الصلاة أقول: بسم الله الرحمن الرحيم، فقال لي: أي بنِي محدث ! إياك والحدث!¹".

إن المعاملات الدنيوية متغيرة بطبيعتها بتغير الأحوال الدنيوية، ولذلك أبى الإجتهاد بشأنها. ولكن المطلوب من الناحية التعبدية والروحية لا يتغير ولا ينقص ولا يزيد، فلا إجتهاد فيه، بل الإتباع فقط.. وقد روى ابن عبد البر عن سعيد بن المسيب أن الخليفة عمر بن الخطاب خطب في الناس فقال لهم:

"يا أيها الناس: إنه قد سنت لكم السنن وفرضت لكم الفرائض وتركتم على الواضحه، إلا أن تضلوا بالناس يميناً وشمالاً!²".

وقد عدد الإمام علي الله الذهلي الفتنة التي ابتليت بها الأمة المحمدية فحصرها في ثلاثين فتنة. والفتنة العاشره في رأيه هي "اختراع أوراد ووظائف غير الوظائف والأوراد المأثورة في السنة النبوية، وذلك بهدف التقرب إلى الله عز وجل أي لغرض نيل الثواب والإلتزام بأمور مستحبة - وكأنها واجبات - وببروز الرغبة في القلب لنشر الوظائف المخترعه"³. ومن الروايات التي نقلها الإمام الذهلي⁴ ما رواه (الدرامي) في سننه عن حكم بن مبارك عن عمرو بن يحيى قال: سمعت أبي يحدث عن أبيه، قال: "كنا نجلس على باب عبد الله بن مسعود

1 رواه الترمذى وابن السائب وابن ماجة وابن البيهقي ..

و لا يأس لخرجت كلمة ما سبب تأثير وقى من حمد الله و دعاء ، ولكن لا يجوز تحويل شيء من هذا النوع الى قضية فقهية و دينية .

2 جامع بيان العلم وفضله ، ج 2 ، ص 187 .

3 ولي الله الذهلي ، إزالة الخفاء (المقصد الأول) .

4 إزالة الخفاء عن حلاقة الحلقاء ، المقصد الأول .

قبل صلاة الغداة فإذا خرج مشينا معه إلى المسجد فجأتنا أبو موسى الأشعري فقال: أخرج إليكم أبو عبد الرحمن بعد؟ قلنا: لا، فجلس معنا حتى خرج فلما خرج قمنا إليه جميعاً فقال له أبو موسى: يا أبو عبد الرحمن إني رأيت في المسجد آنفأ أمراً أنكرته ولم أرَ والحمد لله إلا خيراً. قال: فما هو؟ فقال: إن عشت فستراه، قال رأيت في المسجد قوماً حلقاً جلوساً ينتظرون الصلاة، في كل حلقة رجل وفي أيديهم حصى فيقول كبروا مائة فيكبرون مائة، فيقول هللو مائة، فيهلوون مائة، ويقول سبحوا مائة فيسبحون مائة. قال: فماذا قلت لهم؟ قال: ما قلت لهم شيئاً إنتظر رأيك أو إنتظار أمرك. قال: أفلأ أمرتهم أن يعدوا سيئاتهم وضمنت لهم أن لا يضيع من حسناتهم شيئاً. ثم مضى ومضينا معه حتى أتي حلقة من تلك الحلق فوقف عليهم فقال: ما هذا الذي أراكم تصنعون؟ قالوا: يا عبد الله حصى نعد به التكبير والتهليل والتسبيح، قال: فعدوا سيئاتكم فأنا ضامن أن لا يضيع من حسناتكم شيء وبحكم يا أمّة محمد ما أسرع هلكتكم! هؤلاء صحابة نبيكم ﷺ متوافرون وهذه ثيابه لم تبل وأنيته لم تكسر، و الذي نفسي بيده إنكم لعلى ملة هي أهدى من ملة محمد أو مفتتحوا باب ضلاله! قالوا: والله يا أبو عبد الرحمن ما أردنا إلا الخير. قال: وكم من مرید للخير لن يصيبه. إن رسول الله ﷺ حدثنا أن قوماً يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم، وأئمّة الله ما أدرى لعل أكثرهم منكم^١.

إن هذه الرواية التي رواها (الطبراني) أيضاً وكذلك أوردها (أبو نعيم) في حلية الأولياء، بكلمات مختلفة، تكفي للدلالة على حساسية الصحابة الكرام المفرطة إزاء الأمور التعبدية وكانوا ينكرن ويرفضون أي جديد أو بدعة، مهما كان ذلك صغيراً.. ناهيك عن أن يكثر الجديد وتتضخم البدع حتى تصبح ديناً موازياً ويظهر له خبراؤه ومعلمونه ومرشدون^٥.

١ سنن الدارمي، طبعة دار الفكر بيروت، ب، ت، ج ١ ص ٦٨ - ٦٩.

اللغة الوصفية

كان الباعث الأول لظهور التصوف يكمن في رغبة بعض الناس في وضع (فقه باطني) وتصنيف قواعده على غرار الفقه الظاهري. ولم يكن هذا الأمر بسهل وهين.. فهو يعني بيان حقيقة (كيفية) بلغة (وصفية). إن المصطلحات الفنية لا تحيط إلا بالجوانب الخارجية لشئ ما. ولذلك كان تحويل العلاقة الكيفية بين العبد وربه إلى قضية فنية أمرا يبعث على إختلاف شديد في الدين والمؤمنين به. و هذه المحاولة هي كأن يحاول أحد من الناس شرح كيفية الحب باللغة الرياضية الحسابية.

إن هذا الجهد قد فصل الجانب (الكيفي) في العبادة عن جانبه (الخارجي) فتحول الذكر إلى (ورد) و (تسبيحات)؛ وتحولت كثرة الذكر إلى تكرار بعض الكلمات المخصصة المعينة على أزرار المسبحة بصورة رتيبة، وتحول (تدبر) القرآن¹ إلى تلاوة القرآن، وذلك لأن مكيال الذوق الصوفي قادر على وزن (التلاوة) بينما هو يعجز عن وزن التدبر والتفكير في آيات الله. وهذا هو السبب في أننا، بينما نجد في فهرس الأذكار الصوفية كلمات (الله) و (لا إله إلا الله)، لا نجد فيه أشياء كثيرة جدا لها أهميتها البالغة في الدين (كالآخرة) و (نعم الله) و (آلاء الله) و (آلاء الرب) و (الموت)، وهذا يرجع إلى أن ذكر كلمة (الله) ممكنا بينما يصبح ترديد كلمات كالآخرة و النعمة و الآلاء و الموت بدون مغزى في هذا النظام.

وبما أن العلاقة بالله أصبحت ممكناً البيان من الناحية الخارجية في ظل هذا النظام، فكان الإتجاه التلقائي هو وضع أساليب خارجية لإكتساب هذه العلاقة. وافترضوا بالقياس المحسن أن ستة أمكناً من الجسد البشري مليئة بالأنوار و

¹ انظر الآيات الدالة على هذه المعانى في الآيات القرآنية الكريمة: محمد 24 ، المدثر 55 ، والماندة 20 ، والأعراف 69 .

البركات، وسموها (باللطائف الستة).. وقالوا أن اللطيفة الأولى (القلبية) تقع تحت الشדי الأيسر، واللطيفة الثانية (الروحية) تقع أعلى الشدي الأيمن، واللطيفة الثالثة (النفسية) تقع تحت الصرة، واللطيفة الرابعة (السرية) تقع في وسط الصدر، واللطيفة السادسة (الأخفى) فتقع في (أم الدماغ) ! واستناداً لها الإفتراض، الذي لا يستند إلى سلطان، وضعوا (أشغالاً) وضربات و "مراقبات" غريبة وعجيبة، وأدعوا أن القصد منها هو الضغط على "مقامات الأنوار" حتى ينطلق الجسد كله يذكر الله. ومن هذه الأشغال أن تخمض العينين والشفتين وأن تخرج النفس من الصرة وتحبسها في القلب وأن تخرج (لا) من الصرة حتى الحلقوم ثم تدخل (إله) من حلقوم إلى مقام اللطيفة الروحية ثم تضرب (إلا الله) بكل قوّة في مقام اللطيفة الأولى (القلب) حتى يصل أثرها إلى كل اللطائف الأخرى. لقد وضعوا أموراً لا تعد ولا تحصى من هذا النوع بجرأة مذهلة، وألحقوها بالعبادات "كوسائل مساعدة". وكلمة "مساعدة" هذه كانت محض تنازل رمزي لأن أصحابها أصبحوا يعتقدون أن هذه الوسائل والطرق أنجح في أداء الأهداف الدينية من الوسائل الدينية المعروفة. وقد قال أحد المشاهير: إن ثلاثة طرق توصل إلى الله، وهي (الصوم و الصلاة)، و (تلاؤه القرآن) و (التصوف) وقال عن الطريقيتين الأوليين: "إن السالكين لهما يصلون إلى مقصودهم بعد مدة من الزمان طويلة" .. وكتب آخر يقول مدافعاً عن التصوف: "إنها خير طريق وأسرعها للبلوغ إلى غاية تزكية النفس وتربيتها"¹.

إن الإلتباس الذي وقع هؤلاء ضحيته هو أنهم لم يفرقوا بين الكيفية النفسية الداخلية وبين الكيفية العادمة الخارجية. إن الضغط على وريد "الكيماس" أو تعويج العنق أو تمرير الأنفاس المصحوبة بكلمات أو أصوات معينة قد يجعل من تلك الكلمات أو الأصوات جزءاً لا شعورياً من وظائف الإنسان الفطرية.

¹ عبد الباري الندوبي ، بين التصوف و الحياة ، دمشق 1962 ، ص 33.

ولكن ما علاقة هذه الرياضة اللغوية بالإسلام؟ ولو أدت رياضة كهذه بشخص ما إلى سمع كلمات معينة في دقات قلبه أو أنفاسه فذلك ليس هو الشئ الذي يطلق عليه القرآن كلمة "الذكر" .. إنه وهم محض لا أكثر.. ولو أنك ضمت صوتك إلى صوت ماكينة ما، ناهيك عن القلب والتنفس، وبدأت تقول "الحق، الحق" مع صوت الماكينة فستشعر بعد قليل أن الصوت الخارج من الماكينة ليس إلا "الحق، الحق". و من أشنع الأخطاء أن تعتقد أن هذا هو "الذكر" المطلوب. فالذكر كيفية نفسية سامية تصبح جزءا من شعور المؤمن بدلًا من أن تصبح مجرد عادة.

وكانت النتيجة الحتمية لهذه الإضافة في الدين أن ظهرت بدعة أشد وأشنع، وهي عقيدة "المرشد الكامل" .. فيما أن طرقاً جديدة على القرآن والسنة ظهرت لإقامة علاقة العبد بربه، وظنوا أنها طرق أسرع وأنجع ولا يعرفها إلا "الخاصة"، فقد تحول الدين من علم ظاهر ومكشوف إلى دين باطن سري. (يقال عن الخواجة معين الدين الجشتى الهندي، على سبيل المثال، أنه نال "شغل البساط" من الرسول مباشرة فحصل على المعراج الباطنى!). وأصبح من الضروري التقرب إلى هؤلاء الخواص الذين يملكون العلوم الروحانية السرية وينقلونها إلى أتباعهم ومربيهم. وتطلب هذا الأمر، كذلك أن يتملك الشيوخ قوى تسخيرية قادرة على الضرب على قلوب مربيهم في عالم الخيال فتملأها بالأنوار والبركات. وبسبب هذا المقتضى أخذ الشيوخ ينصرفون أكثر وأكثر إلى العمليات والأشغال الروحية فظهر أناس قادرون على بعث "الإضطراب" في قلوب مربيهم وزوارهم بنظرة واحدة، وعلى تغيير نفوسهم في لمح البصر ! وهكذا تقمصت فنون الرهبان المسيحيين والهندوس الزي الإسلامي فاندست إلى الديانة الإسلامية.

وعند هذا الحد دخلت مؤسسة "الكهنوت" إلى الإسلام من أوسع الأبواب.

وكان الرسول الكريم قد أخبرنا بأنه لا كهنوت ولا رهبانية في الأمة المسلمة، وهو أمر يعتبره القرآن بأنه "إتخاذ العباد أرباباً من دون الله"¹ وبدأوا يقدمون تصورات مبالغة فيها عن شيوخ التصوف، فقيل على سبيل المثال: "الشيخ في قومه كالنبي في أمتة"، و "من أراد أن يجلس مع الله فليجلس مع أهل التصوف". ونشروا القصص والأساطير حول معجزات الشيوخ وكرامات الصوفية حتى أصبحت جزءاً من اللغة والأدب. وأخذ الناس يرددون قصصاً وروايات خرافية مؤمنين بأنها وقائع حقيقة. وأخذت مجالس ومواعظ الشيوخ تزدهر عن طريق هذه القصص المذهبة، حتى نسوا أنهم - بتزويدهم بهذه القصص - يقولون للناس، بصورة غير مباشرة: أن شيوخهم كانوا أعظم وأجل من صحابة الرسول الكرام الذين لم يأتوا بمثل هذه الكرامات المذهبة بكل تأكيد. إن بعض الوقائع الخارقة التي وردت عن الصحابة في الروايات الصحيحة هي ليست كرامات بقدر ما تتصل بنصرة الله لأهل الإيمان.

إن الشيء الثابت في الإسلام هو نصرة الله التي تأتي نتيجة استحقاق أهل الإيمان وينسبون أدعيتهم. إن النصرة الإلهية التي نالها الصحابة الكرام ممكنة الوجود ملسمي اليوم بشرط أن يضطلعوا بالواجب الذي كان الصحابة يقومون به خير قيام. إن الفرق الشاسع بين كرامات الصحابة الكرام وكرامات الشيوخ المعاصرين يتضح في أن الصحابة استأصلوا الباطل والشر في أرض العرب والعجم بينما شيوخنا "المتصوفة". [الذين يدعون تسخير الجن والإنس والنبات والحيوان في عالم الكرامات المزعوم]. هم أعجز البشر في عالم الحقيقة. فقوى الباطل تدوس الإسلام وأهله في كل أرجاء المعمورة وهم عاجزون عن الإتيان بأدنى شيء من الدفاع، فهم يعيشون إما بالإنقطاع عن معارك الحياة أو بتملق الحكام.

¹ انظر النوبة: 31 / آل عمران: 64 . مثل قوله تعالى (اتخذوا أحبارهم و رهبانهم أرباباً من دون الله).

إن تقديس "المشائخ"¹ وبكلمة أخرى ظهور مؤسسة "الصالحين" لم تنته عند هذا الحد. فقصص الكرامات والأعاجيب المختلقة التي تكون أبرز جزء من المجالس الصوفية، زرعت الأوهام في عقول الناس فأخذوا يعتقدون أن شيوخهم طبقة أخرى مستقلة عن عامة البشر كما كان الأنبياء والملائكة طبقة أخرى مختلفة عن العامة. واعتقدوا أن هؤلا مختارون ومصطفون لدى الله. ونسب الناس إلى هؤلاء صفات عديمة المعاني بصورة مدهشة. ومن هذه التصورات رواج الإعتقاد بوجود أناس معينين تعيننا، ما له من سلطان، ويطلق على هؤلاء "أولياء الله"². ويقول هذا الإعتقاد: إن أولياء الله نوعان: (أهل الإرشاد) و (أهل التكوين). وأهل الإرشاد هم الذين اختارهم الله لهداية البشر وإصلاح القلوب وتربيتها ولتعليم الناس طرق التقرب إلى الله. ويسمى أفضل أولياء عصره "قطب الإرشاد" .. أما النوع الثاني - "أهل التكوين" - فيطلق على الأولياء المناط بهم إصلاح معاش البشر وتنظيم أمور العالم ودفع المصائب. وهؤلاء يقومون بإصلاح شئون الدنيا بإذن من الله. ويسمى أعلى الأولياء وسيدهم "قطب التكوين". ويقولون: إن أهل الإرشاد كالأنبياء و أهل التكوين كالملائكة الذين وصفهم الله بـ "مدبرات الأمر" !!

إنه من الأمور المدهشة حقا أن عددا لا يحصى من البشر قد قبل هذه العقيدة بمنتهى الإخلاص رغم أن كلا من القرآن الكريم والأحاديث يخلوا من أي شئ يؤيد هذه العقيدة.

ومهما كان مبلغ إخلاص الذين أبتكروا التصوف في بداية الأمر، فلا شك في أن التصوف في حقيقته هو عين الشئ الذي أطلق عليه القرآن وصف

1 المراد بالمشائخ هنا رجال الطرق الصوفية المترجرون .

2 هم غير أولياء الله الذين جاءوا في القرآن و الذين يشملون كل مسلم تقى ورع صالح !! .

"الإبتداع"¹. لقد فكر بعض الصالحين ببساطة وبراءة في أن يضعوا بعض الطرق الإضافية الجديدة التي تساعد الناس على تقوية صلتهم بالله، لتكون وسائل معاونة للعبادات الإسلامية المنصوص عليها. وقد فات هؤلاء أنهم بعملهم هذا يدخلون عبادة البشر إلى الإسلام بينما الأصل هو عبادة الله لا غير. فعندما يكون البحث عن التقرب إليه علما لا يكتسب بتدبر القرآن ودراسة الأحاديث النبوية، بل يكتسب من أقوال وسلوك أناس معينين، فالنتيجة الحتمية هي أن هؤلاء البشر سيصبحون "المرشدون" و "المراجع" و "النفوس المزكاة" الذين "يرثون" هذا العلم عن سبّهم جيلاً بعد جيل. إن هؤلاء الصالحين باختيارهم هذا الأسلوب في تربية الناس، دخلوادائرة المحظورة، لأنه لا تجوز أية إضافة إجتهادية في أمور العبادات، بصورة مطلقة.

إن أمرين كانا من أغرب الإنحرافات التي وقع فيها المسلمون في العصور المتأخرة.. وأحدهما هو إغلاق باب الإجتهاد في "المعاملات"، وثانيهما: فتح باب الإجتهاد في "العبادات" .. بينما العكس هو مطلوب الشريعة الحقيقية.. فقد أجيئ للمسلمين بصورة صريحة أن يجتهدوا، في إطار تعاليم الإسلام الأصولية، معالجة القضايا الجديدة. ولذلك إجتهد الفقهاء الأوائل في قضايا كثيرة و لكن قيل للمتأخرین: "إن الأوائل لم يتركوا للأواخر شيئاً !! إن هذا النوع من القول جراءة مدهشة و مؤسفة في حق الدين. وإذا كان يجوز لفقهاء القرن الثاني الهجري أن يجتهدوا، بالرغم من وجود القرآن والسنة، فهل فتاوى هؤلاء الأئمة أكثر جامعية و شمولاً من كتاب الله و سنته رسوله، حتى لا يسمح للآخرين بالإجتهاد مهما تغيرت الأحوال ؟ !

إن الذين تعلموا الإسلام بمصاحبة الرسول الكريم مباشرة كانوا غير قادرين

1 (و رهابية إنبعوها) .

على تقبل ظهور "مؤسسة الصالحين" في الدين والتي تقتضي أن يبدأ الناس في التعاقب على مناصب القيادة الدينية مثل ما يتعاقب الناس على العروش وكراسي الحكم.

إن الصحابة الكرام لم يكونوا يعترفون بشئ للهداية ماعدا كتاب الله وسنة رسوله. وكانوا ينقدون عمر بن الخطاب رضي الله عنه كما ينقدون أي إنسان آخر. ولم يكونوا يقبلون برأي الخليفة إحتراماً لذاته بل حين يكون قد أثبت دعواه بالبرهان الصادق... إشتكي الخليفة الرابع علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - إلى القاضي شريح من يهودي بشأن الدرع وجاء بعده قبر وولده الحسين شاهدين له، فلم يقبل شريح شهادة الحسين رغم كل ما كان يحيط به من طهر وثقة، فقال له علي: "أترد شهادة الحسين وقد قال رسول الله ﷺ: "الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة"، قال: "لا، ولكن حفظت عنك أنه لا تجوز شهادة الولد على والده".¹

وكان تصور الصحابة عن إقتداء البشر أن يقتدي بهن مات بدل من إتخاذ الأحياء "شيوخاً للقدوة" لأن أحداً من الأحياء ليس معصوماً عن الأخطاء، فيتمكن لكل البشر، ما عدا الأنبياء، أن يقعوا في الفتنة في وقت من الأوقات. وقد قال بن مسعود: "من كان مستينا فليسن بهن قد مات، فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة".

وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب: "إياكم والإستنان بالرجال، فإن الرجل يعمل بعمل أهل الجنة ثم ينقلب لعلم الله فيه فيعمل بعمل أهل النار فيموت وهو من أهل النار. وإن الرجل ي يعمل بعمل أهل النار فينقلب لعلم الله فيعمل بعمل أهل الجنة فيموت وهو من أهل الجنة، فإن كنتم لا بد فاعلين

¹ كنز العمال، ج 4، ص 6.

فبالآموات لا بالأحياء".¹

إن مؤسسة "الصالحين"، التي ظهرت في الأمة الإسلامية في العصور المتأخرة، لا تقوم على برهان أو سلطان من كتاب الله وسنة رسوله. إن شيئاً من هذا النوع غريب على هيكل الإسلام. إنها تقليد ومحاكاة للأنظمة السائدة لدى الأمم الأخرى كمؤسسة الكهنوت والرهبانية التي تسللت إلى الإسلام متخفية برداء المصطلحات الإسلامية. إن شيئاً من هذا النوع سوف يستمر في الإسلام ما دامت "حكايات" و "مكتوبات" و "تكهنات" "مؤسسة الصالحين" الخرافية هي منبع الدين دون كتاب الله ^{وسنة} نبيه. وفي اللحظة التي يصبح فيها كتاب الله وسنة نبيه منبع الدين ومرجعه ستختفى هذه المعتقدات لأن لم يكن لها من وجود!!

3 - علم الكلام:

ودخل الفساد الثالث إلى الإسلام عبر "علم الكلام". إن علم الكلام، في حقيقته، أداة مساعدة للدعوه الإسلامية ويهدف إلى إبلاغ حقائق الدين بنفس اللغة والمصطلحات التي يأنس لها المدعو في عصره. ونظراً لأهمية علم الكلام أدخل الإمام الغزالي (1059-1111م) مادة "المعقولات" إلى منهج دراسة الطلبة حتى يتخرج العلماء المتمكنون من الدين والقادرون على تمثيل الدين بإسلوب العصر. ولكن علم الكلام من حيث نوعيته نفسها علم زماني مؤقت، فهو يشرح حقائق الإسلام الدائمة بمصطلحات وقنية رائجة في عصر المدعو. ولذلك تنتهي أهمية علم الكلام تلقائياً بنهاية العصر الذي وضع فيه. ولكن ضعف البشر المتجلي في الميادين الأخرى لعب دوره في هذا المجال أيضاً. فعندما يظهر إلى الوجود شئ ما وتنسب إليه أسماء بعض الشخصيات المجلة فإن ذلك الشئ يكتسب القدسية على مر الزمن حتى يحين وقت يصبح مجرد التفكير في إصلاح ذلك الشئ أو ترميمه أو تحديثه ذنباً من الذنوب عند الناس المؤمنين به.

وهذا هو عين ما حدث للمكتبة الكلامية التي وضعت في العصر العباسي. وكان علم الكلام آنذاك فعالاً حتى حول العلوم المترتبة إلى علوم طيعة خادمة للدعوة الإسلامية. ولكن التطور الزمني قد ألغى فائدته علم الكلام القديم بصورة قطعية. إن من الأصح أن توصف (المعقولات) التي تدرس لطلبة المدارس الدينية اليوم، بأنها (غير معقولات).. فإن هذه المعقولات قائمة على قياسات عقلية أبطلتها المشاهدة العلمية والتجربة الحديثة. إن الشئ الذي كان يتمتع يوماً ما بفائدة وقنية، تحول على مر الزمن وبدون تطوير إلى جزء لا يتجزأ من منهج الدراسة الدينية. إن نصوص التعاليم الإسلامية لم تتأثر بهذا الخطأ، ولكن نظام التعليم الإسلامي هو الذي أصبح ضحية هذا التمسك بشيء فقد قيمته في

هذا العصر الحاضر. إن هذا هو الوضع الذي يحول دون ظهور الإسلام كفكر سائد في عالم اليوم. إن مدارسنا الدينية بمنتهى الإخلاص وحسن النية مشغولة في تربية وتخرج أناس كانوا مفیدین للعمل قبل خمسة قرون من الزمن. إن من الواضح أن أمثال هؤلاء لا يستطيعون إظهار الإسلام على المستوى الفكري في هذا العالم المتغير. فلا يمكنهم نظراً لعقليتهم ومزاجهم إلا أن يمثلوا الإسلام قمثلاً هابطاً فيؤكدو أن الإسلام كان أمراً صالحًا لعصر ما قبل العلم وإنه لا يصلح لإنسان العصر الحديث.

وقد حاولت بعض الحركات الإسلامية الحديثة أن تملأ هذا الفراغ. وعلى سبيل المثال: الحركات التي عرضت تعاليم الإسلام بمصطلحات سياسية. وقد أفادت هذه الحركات فوائد مؤقتة دون شك. ولكن لسوء الحظ فإن فساداً معيناً شاب هذه الحركات منذ البداية. فهذه الحركات كانت في حقيقتها حركات كلامية، وقد نشأت في خضم الأفكار الغربية في القرن التاسع عشر، لتجعل الدين مقبولاً لعامة المسلمين، ولكن دعوة هذه الحركات المتعصمين لم يكتفوا ببيان الإسلام بمصطلحات سياسية بل أخذوا يدونون التفسير والسيره بناء على نظرتهم السياسية الخاصة ووصلوا إلى درجة الإعلان عن أن الأنبياء لم يبعثوا في مختلف العصور إلا لإقامة الحكومة الإلهية. وهكذا أعطوا مكتبتهم الكلامية عنوان (تفسير الدين) بعينه، بدلاً من أن تكون إستجابة لضرورة وقتيه. ولم يكن هذا الفعل محض جرأة على الدين، بل إنه في الوقت نفسه أصاب أتباع هذه الحركات بنفس الجمود الذي كانت المؤسسات الدينية القدية تعاني منه.

إن فكر القرن التاسع عشر السياسي، الذي أفرز هذه المكتبة الكلامية، قد إنتهى بنهاية الحرب العالمية الثانية. وكانت الضرورة تقتضي بوجوب إعداد مكتبة كلامية جديدة في ضوء المقتضيات الفكرية الجديدة. ولكن هذه

المجموعة لا تزال اليوم تتلوا تلك المكتبة السياسية القديمة، بصورة لا طائل من ورائها، تماماً كما تنهك المدارس الدينية في تدريس المعقولات اليونانية الミتة.. والسبب في هذا الجمود هو أن هذه المجموعة لا تزال تظن أن مكتبتها هذه تفسير مطلق للدين وليس بعلم كلام ناتج عن ضرورة وقية في عصر معين.

إنه لا وجود اليوم لأفران الحديد التي أنشأت إبان العملات الصليبية في مصر والشام، لصناعة الأسلحة: فقد فقدت هذه الأفران أهميتها بمرور الزمن. وهكذا كان ينبغي أن تخفي المعقولات القديمة من المكتبة الإسلامية العلمية فتصبح جزءاً من الماضي لا أكثر. فالشئ الذي يظهر نتيجة ظروف وقية يزول، كذلك بانتهاء تلك الظروف. و لكننا لم نتخلص بعد من المعقولات القديمة. والسبب في هذا يعود إلى أن المعقولات القديمة قد دخلت إلى مكتبتنا الفنية فأصبحت جزءاً منها. وكان زمن دخول هذه العلوم الأجنبية إلى المجتمع الإسلامي هو زمن تدوين العلوم الإسلامية، فتأثر الناس بسحر المنطق القديم وظنوا أنه أفضل أسلوب لتدوين العلوم الإسلامية. ولذلك ألفت الكتب الإسلامية بأسلوب المنطق القديم، فأصبح المنطق القديم جزء لا يتجزأ من المكتبة الإسلامية. إنه من السهولة يمكن أن نقنع أي عام دين بضرورة إخراج المعقولات القديمة من مناهج المدارس الدينية. ولكن السؤال الذي سيثور من فوره هو: إذا كيف سندع العلماء القادرين على فهم كتبنا الفنية؟ إنك لو قضيت على المعقولات القديمة فلن تجد أي صعوبة في فهم كتاب الله وسنته نبيه لأن هذين المصدررين الأساسيين لم يدونا على أساس مصطلحات المنطق القديم، أما كتب علم العقائد وأصول الفقه فلا يمكن فهمها إلا إذا كان القارئ على دراية جيدة بالمصطلحات المنطقية الفنية القديمة.

إن أكبر خساره نتجت عن ربط المعقولات اليونانية بالدين هي ظهور

منهج جديد لتدبر الدين وبيان المسائل مخالفاً لمنهج الرسول ﷺ وصحابته الكرام.

لقد أفتى الحنفية بعدم قراءة الفاتحة خلف الإمام. وحين عرض بعض الناس أمام الشيخ رشيد أحمد الكنكوفي (الهندي) الحديث المروي عن رسول الله ﷺ أنه سُأله بعض أصحابه ذات يوم عما إذا كانوا يتلون القرآن خلف الإمام، فأجابوه بنعم، فقال لهم الرسول: (لا تفعلوا إلا بأم القرآن).. فرفض الشيخ رحمة الله، الإعتراف بهذا الحديث، الذي يقول بعكس ما ذهب إليه الأحناف، وقال: (هذا دليل الإباحة، لا دليل الوجوب)¹.

إن هذا مثال بسيط يدل على أسلوب النقاش والجدل الديني الذي راج علينا في العصور المتأخرة، وهو أسلوب بعيد كل البعد عن الأسلوب البسيط غير المعقّد في بدء الإسلام. واليوم لا يعتبر من (العلماء) إلا من يكون قادراً على تبيان المسائل الدينية بهذه اللغة الفنية، وبهذا الأسلوب المنطقي.

صحيح أن هذا الأسلوب لتناول المباحث الدينية جيد من الناحية الفنية، ولكن لا شك في أن هذا ليس هو الدين الذي تركه لنا النبي العربي ﷺ الذي كان يفخر قائلاً: "نحن أمة أمية"².... و "بعثت بالحنفية السمحنة" .. أما نحن فتحولنا ديننا إلى دين معتقد وفني اتباعاً لأساليب اليهود والنصارى الذين عقدوا دين موسى وعيسى عليهما السلام. إن كون هذا (الدين الفني) غير إسلامي أمر واضح من الحقيقة الصارخة وهي أنه لو كان أحد صحابة الرسول الكرام على قيد الحياة اليوم لما تمكن من الجلوس على كرسي (شيخ الحديث) في إحدى مدارسنا الدينية لعدم كونه مؤهلاً لذلك من ناحية إستيعاب العلوم الفنية... إن

1 ذكر هذه الواقعة الشيخ محمد يوسف السوري في كتابه نفحات العبر.

2 صحيح البخاري، باب رؤية الهلال.

الصحابة الكرام، بل وحتى الرسول الكريم ﷺ، لن يكونوا مؤهلين لتدريس علوم الحديث كما تدرّس الآن بهذه المدارس.

إن أسلوب البحث المنطقي القديم قد فقد وزنه في العصر الحاضر. فالمنطق القديم يقوم على قياسات عقلية بينما يقوم المنطق الحديث، الراهن في هذا العصر، على العلم الذي يثبت الآراء بالواقع وبالتحليل التجريبي. أما الكتب التي تدرس في المدارس الدينية فهي قد أفت في ضوء المنطق القديم ويشرّحها الأساتذة ويدرسها الطلبة في ضوء ذلك المنطق البائد، ولذلك يتخرج من هذه المدارس العلماء الذين يكونون غرباء على زمنهم فكراً ومنهجاً واستدلالاً. إنهم غير قادرين على إقناع إنسان العصر بدينهم منطقياً وعلمياً رغم تسلحهم (بالأسلحة المنطقية) التي تدرّبوا عليها في مدارسهم. إنهم يصابون بعقدة النقص حين يدخلون معترك الحياة، أو حين يصططون للجرأة فينصبون أنفسهم دعاة إلى الإسلام.

إن شروحهم للإسلام تعطي لإنسان العصر إنطباعاً واحداً، وهو أن الإسلام لم يكن يبعث الطمأنينة إلا في إنسان العصر القديم فالإنطباع الذي يجده إنسان العصر الحديث من خلال هؤلاء هو أن الإسلام لا يملك شيئاً بعث السكينة والطمأنينة في عقله ونفسه. وما أسوأ هذا التمثيل للدين الإلهي الذي يمكنه، لو أحسن عرضه أن يسود كل أرجاء المعمورة !

لقد آن الأوان لبدء جهد دءوب ومخلص لتطهير الدين الحنيف من رواسب عصور الانحطاط، لكي يصبح كتاب الله وسنة نبيه هما وحدهما مصدر الدين ومنبعه، بدلاً من فنون وقتنية طفيليّة فقدت جدواها وأصبحت عائقاً في وجه نشر الدعوة الإسلامية وفي فهم المسلمين لدينهم الفهم الصحيح.

معقولات اسلامية

نحو علم كلام جديد¹

يخبرنا القرآن الكريم بأن الله تعالى يقوم بتدبير الأمر وتفصيل الآيات. قال الله تعالى: "كل يجري لأجل مسمى، يدبر الأمر، يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقون" {الرعد 2}.

وتدبير الأمر يعني تنظيم الكون الذي تسمى جوانبه الخارجية بالعلوم الطبيعية، وتفصيل الآيات يعني الوحي الذي تتمثل آخر صوره في القرآن الكريم المحفوظ لدينا. وعلم الكلام في حقيقته هو محاولة لفهم وحدة العلم الموحي والعلم الكوني، وفهم الكون المجهول بالكون المعروف.

ولو نظرنا الى الأمر من هذه الناحية فسنجد أنه لا يوجد في الإسلام شيء يسمى بعلم الكلام الجديد أو القديم. فعلم الكلام في حقيقة الأمر لم يكن أكثر من تدوين معقولات القرآن، ولكن متكلمي العصر العباسي رأوا أن تدوين هذا العلم ليس أكثر من تطبيق المعقولات الإسلامية على المعقولات الفلسفية البشرية.

¹ ألقى الأستاذ وحيد الدين خان هذه الكلمة بالجامعة المثلية الإسلامية، بدمشق، في 27 ديسمبر 1976، خلال ندوة دراسات حول "قضية تجديد الفكر الإسلامي". وهذا البحث ملحق بكتيب المؤلف "نحو تدوين تجديد للعلوم الإسلامية" {بيروت، دار النفاث، 1978}، وللمؤلف محاولات رائدة لوضع علم الكلام الإسلامي الجديد القائم على معايير العصر، مثل "الإسلام يتحدى" و "الدين في مواجهة العلم" وغيرها من الكتب {المترجم}.

وهذا هو الخطاء الذي قسم علم الكلام إلى قديم وجديد، لأن المعقولات الفلسفية البشرية كانت قياسية، ومن ثم كانت متغيرة بتغير الزمن، بينما لا يطرأ أي تغير على المعقولات القرآنية والكونية. إن أسلوب الأستدلال القرآني هو أسلوب كوني طبيعي. فالقرآن يستدل على الواقع غير المحسوسة بالواقع المحسوسة. وأساس علم الكلام القرآني يقوم على القوانين الأرضية والسماوية الثابتة التي لا تتغير، ولذلك فإن علم الكلام القرآني ثابت لا يتغير. ومن الصحيح القول بأن علم الكلام على أساس العلوم البشرية أصبح عرضة للقدم والجدّ، لأن دون علم الكلام على أساس العلوم القرآنية أصبح عرضة للقدم والجدّ، لأن هذه العلوم كانت مبنية على القياس، وبالتالي متغيرة.

والآن في النصف الأخير من القرن العشرين، أصبحنا إلى حد كبير قادرين على تدوين علم الكلام بصورة قطعية وآفاقية. إن عالم الطبيعة وعلم الطبيعة كانا شيئين مختلفين في الزمن القديم. فعالم الطبيعة كان يقوم على الحقائق بينما كان أساس علم الطبيعة هو القياس. والآن اجتمع عالم الطبيعة وعلم الطبيعة على صعيد واحد، وهكذا كان القرآن وعلم الكلام القديم شيئين متغيرين. وبينما كان القرآن يحتوي على الآيات المحكمات كان علم الكلام مبنيا على قياسات الفلاسفة. إن تطور العلم مكّنا اليوم من وضع علم كلام متناسب مع القرآن. وإذا كان هناك من شئ يسمى بعلم الكلام الجديد فهو هذا العلم الذي لم يدّون بعد بالرغم من توافر الموارد وشدة حاجتنا إليه لسد الفراغ الفكري الذي يعاني منه المسلمون بصفة عامة، وغير المسلمين بصفة خاصة.

وأسألكم بعض الواجبات المطلوبة منا لتدوين علم الكلام الجديد:

1 - إن أول عمل مطلوب منا هو صياغة نظرية علمية قائمة على أساس قرآنية، وأعني نظرية الأسلوب الأستدلالي. فالقياس كان يقوم في الزمن القديم

على المفروضات والمسلمات. وفي المراحل الأولى من ظهور الأساليب الحديثة للتحقيق والتجربة أكدوا على أهمية (المشاهدة). ولكن العصر العلمي الذي بدأ في أعقاب انتصارات قد أوضح بجلاء أن الحقيقة في آخر صورها لا تخضع للمشاهدة البشرية. وقد أصبح من المسلم الآن أن الإنسان غير قادر على الأستدلال بالمشاهدة بكفايته ووسائله المحدودة، وأن الإنسان لا يقدر إلا على الاستدلال الاستنباطي. فنحن لا نستطيع أن نشاهد الحقائق، بل جل ما نستطيعه هو استنباط الحقائق الكامنة بدراسة ومشاهدة الأشياء الظاهرة.

إن نظرية علمية جديدة قد ظهرت الآن، وهي تطابق النظرية العلمية القرانية. فالقرآن أخبرنا بأن الإنسان لا يتمتع إلا "بالعلم القليل" {وما أوتيم من العلم إلا قليل} (الإسراء: 85)، ولذلك عليه أن يقنع بالعلم غير المباشر بدلاً من أن يصر على العلم المباشر. وهكذا تلقي العلم البشري بالوحي. وهذه النظرية العلمية الحديثة قد أثبتت، تلقائياً، أن أسلوب الإستدلال القرآني هو الإستدلال العلمي عينه. وأول خطوة لوضع علم الكلام، على المستوى العصر الحاضر، هي تدوين هذا الإكتشاف الجديد.

2 - والعمل الثاني المطلوب منا هو تدوين علم الآثار القرآني. فالقرآن يشير إلى الأنبياء والحضارات القديمة. وهذا الجزء من القرآن يسمى "بأيام الله" {وذكرهم بأيام الله} (إبراهيم: 5).

وهذه الأحداث التاريخية جد هامة من وجهة نظر القرآن. فهذه الأحداث والواقع التاريخية تثبت أن للكون إليها أرسل رسلاً في كل العصور وهو الذي يحدد مصير الشعوب وأقدار الحضارات بناء على قوانينه وسنته الثابتة. إن هذا الموضوع يتعلق بالتاريخ، ولكن القرآن لا يتناوله بالأسلوب التاريخي المعهود، بل يتناوله بأسلوب إجمالي لأغراض الدعوة و الإنذار و التبشير. والمعلومات

التاريخية التي لم ترد في القرآن كانت مجهولة في الزمن القديم، إلى حد كبير. ولذلك لم يكن في وسع مؤرخينا القدامى أن يسجلها بأسلوب التدوين التاريخي السليم.. والآن قد اكتشفنا سجلات ووثائق كثيرة عن تلك الأحداث، بدراسة الآثار ونتائج الحفريات، وأصبح ممكناً اليوم شرح الإشارات القرآنية حول أيام الله وتوثيقها تأريخياً، وبالتالي تدوين الدعوة القرآنية بلغة التاريخ.

3 - والعمل الثالث المطلوب هو تدوين "آيات الآفاق" {سربهم آياتنا في الآفاق} (فصلت: 53) باستغلال الاكتشافات العلمية الجديدة. فالقرآن يشير مرة بعد أخرى إلى آيات الكون التي تشير إلى خالقها وتوضح حكمة الله من وراء خلق العالم. والقرآن يستخدم هذه الآيات الكونية لتوثيق دعوته، إلا أن هذه الإشارات إجمالية. والحكمة في إجمالها هي أن الإنسان القديم لم يكن يعرف كثيراً عنها، ولذلك لم يكن ليفهمها لو فصلت له، ولكن قد دخل في متأهبات تبعده عن الهدف الحقيقي للوحى، ألا وهو هداية البشر وإنذاره من يوم الحساب القادم. والآن قد تجمعت لدينا مواد مفصلة عن تلك الإشارات القرآنية، بفضل تطور العلوم الطبيعية. وليس من باب المبالغة أن أقول إن العلوم الطبيعية الحديثة قد أصبحت علم الكلام الإسلامي. ولم يبقى علينا إلا تدوينها. وال الحاجة تقتضي تدوين آيات الله الكامنة في خلقه وكونه، بإستخدام الإكتشافات العلمية الحديثة.

4 - إن عنصراً من عناصر أسلوب الإستدلال القرآني هو ما يسميه {وفي أنفسهم} (فصلت: 53)، أي آيات الله الكامنة في النفس البشرية. وهذا الجانب كان مجهولاً إلى حد كبير في قديم الزمان. وقد كتب الصوفية كثيراً في هذا الجانب ولكن إعتمدوا على القياس أكثر مما إعتمدوا على الحقائق العلمية. والجزء الأكبر من كتاباتهم فقد مغزاهم الآن. أما أبحاث علم النفس الحديث فقد وفرت لنا معلومات كثيرة تساعدنا على تفصيل إشارات القرآن إلى حد كبير. ولو

أنجز هذا العمل على المستوى العلمي العصري لتصبح تصديقاً نفسياً عظيماً لحقائق القرآن.

5 - ثم هناك مجال العلوم الاجتماعية، أي القانون والسياسة والاقتصاد وغيرها من العلوم التي كتب حولها الكثير في الزمن الحديث. إن ذخيرة العلوم الاجتماعية مفيدة من جانب عديدة، ولكنني من الناحية المبدئية لا أؤيد إدخال العلوم الاجتماعية إلى دائرة علم الكلام. والسبب في هذا هو نوعية العلوم الاجتماعية، فهي كلها علوم قياسية وأغلب الظن أنها ستظل قياسية. فلو استخدمناها في علم الكلام لارتكتبنا مرة أخرى، ذات الخطأ الذي ارتكبه متكلمو العصر العباسي الذين أسسوا علم الكلام على القياسات الفلسفية السائدة حينذاك، بينما نحن سندون علم الكلام على القياسات الاجتماعية.. ولذلك أرى أن تدخل العلوم الاجتماعية في دائرة اختصاص الفقه وليس في دائرة علم الكلام، وبكلمة أخرى ينبغي تدوين الاجتماعيات كنظام فقهي بدلاً من تأسيس المعقولات الإسلامية عليها.

6 - وأخيراً، أريد أن أذكر عملاً علمياً مطلوباً لا يعد عموماً من علم الكلام، ولكنه الجزء الأكبر من علم الكلام من حيث الأهداف. وهذا العمل هو إعداد كتب للتعریف بالإسلام بأسلوب علمي. إن كتاباً كثيرة قد ألفت في العصر الحديث حول الإسلام، ولكن الأسلوب الكلامي - بدلاً من الأسلوب العلمي - يغلب على هذه الكتب.

ولذلك يمكن وضع كل الكتب الإسلامية الحديثة، من تفسير وسيرة نبوية وغيرها من الكتب العامة، في صف علم الكلام (القديم).

فبغض النظر عن أهمية هذه الكتب، لا ينبغي أن تصبح الكتب الإسلامية العامة من تفسير وسيرة، خاضعة لعلم كلام يتغير من عصر إلى آخر.

إن العصر الحديث يمتاز بحرية الرأي والفكر. والإنسان الحديث يريد إن تقدم له المعلومات بدون إضافات تفسيرية وكلامية ويترك له التقييم. وهذا هو السبب في الطلب المتزايد على الكتب الإسلامية الجديدة بالرغم من إصابة المكتبة الإسلامية بالتخمة. إن إنسان العصر يريد أن يفهم الإسلام ولكنه يطلب الكتب التي تعرض حقائق الإسلام بالأسلوب العلمي. إن إنسان العصر الحاضر يفضل الأسلوب العلمي على الأسلوب العقلي والفكري في مخاطبة القراء، ولكن لسوء الحظ، فإن الأسلوب العلمي لم يلق الرواج بعد، في لغة ما من لغات المسلمين. إن الأسلوب العلمي على عكس الأسلوب الكلامي، يعتمد على البساطة والإيجابية التي تراعي سرد الحقائق لغة وبيانا.

إن مؤلفينا قد سطروا ما لا يحصى من الكتب في العصر الحاضر، ولكنني لا أزال أجهل وجود مجموعة كتب إسلامية، في أية لغة من اللغات، تعرض تعاليم الإسلام وسيرة النبي، بالأسلوب البسيط الإيجابي الواقعي. هذا بالرغم من شدة احتياجنا إلى هذا النوع من الكتب أكثر من أي شيء آخر اليوم. وأتجرأ أن أقول: إننا إن لم نفعل أي شيء سوى تدوين تعاليم القرآن والسيرة والأحاديث وأحوال الصحابة وتاريخ الإسلام (بدلاً من تاريخ الفتوحات) بأسلوب علمي واقعي، ونشرنا هذه الكتب بمختلف لغات العالم، فسنكون قد حققنا هدف علم الكلام فيما يتعلق بالعصر الحاضر على الأقل.

نحو تدوين جديد للعلوم الإسلامية¹

كان عقبة بن نافع التابعي (م 63 هـ) قائداً للجيوش الإسلامية في إفريقيا في عهد يزيد بن معاوية. ووصل عقبة، وهو يفتح بلاد شمالي إفريقيا، إلى شواطئ المحيط الأطلسي. وكانت مدينة أسفى آخر نقطة وصل إليها، وهناك دخل بفرسه إلى مياه البحر وقال عبارته المشهورة: "اللهم ! .. لو أعلم أن وراء هذا البحر بلداً لخضته إليه، حتى لا يعبد أحد دونك".

إن الذين آمنوا بالقرآن في عصر الإسلام الأول واكتسبوا تربتهم من رسول الله مباشرة، كانوا يتذمرون حماسةً لإبلاغ رسالة الله إلى كل البشر. وكانت عواطفهم لا تهدأ إلا حين يصبح كل البشر عباداً لله. ودارس التاريخ الإسلامي في العصور التالية يرى، بدهش أن هذه العاطفة قد خبت وتلاشت بمرور الأيام. وحين تعرض المسلمون للانهيار السياسي في القرون الأخيرة قامت لدينا حركات عظيمة الشأن لاستعادة السيادة والمجده الغابر، ولكن لم تظهر حركة جديرة بالذكر لأجل الدعوة إلى الله وإبلاغ الرسالة.

إن القرآن الذي كان يقرأه الصحابة والتابعون، هو القرآن ذاته الذي قرأته أجيالنا التالية فما السبب أن القرآن الذي ألهب همم الأوائل للدعوة إلى رسالة

¹ هذا البحث مترجم عن مجلة "الرسالة" عدد سبتمبر 1977. وقد سبق نشره في كتيب ضمن سلسلة "نحو وعي إسلامي" ، رقم 10 (القاهرة، دار المختار الإسلامي، 1978) و "الإسلام و العصر الحديث" رقم 2 (بيروت ، دار الفانس ، 1978).

الله لم يحث الأواخر على القيام بمسؤوليات الدعوة ؟

ليس من سبب لهذه النتيجة سوى أن القرآن كان مصدر علوم الدين في صدر الإسلام بصورة مباشرة بينما اختفى وجوده في أكاديميات العلوم التي اخترعها عقول البشر في العصور التالية.

إن القرآن هو المصدر الذي يحتوي على كل الأمور الأساسية للدين. و المطلوب (تبين)¹ هذه الأمور الأساسية لتبسيط فهمها لعامة الناس. وكانت سيرة الرسول ﷺ نموذج واضح لهذا التبين، ولكن تبين القرآن وتفصيله تحول في العصور المتأخرة من أسلوب النبوة البسيط إلى أسلوب فني. وكانت النتيجة أن ظهر إلى الوجود معتقد جديد معتقد موازي بدلًا من الدين الإسلامي البسيط الفطري، وقد نسبت عناصر هذا المعتقد الجديد من المصطلحات الفقهية وتقولات المتكلمين ورموز الصوفية. والتابعون الذين اكتسبوا الدين من صحابة الرسول، اعترضوا بشدة على إحالة الدين إلى "فن". وكانوا يرون أن هذا العمل ليس باتباع لسنة الرسول، بل هو تقليد بعض أهل الكتاب. ولكن عامة الناس والحكام الفاقدون لكيفيات الدين وجدوا أن "الدين الفني" - إن صحة التسمية - يناسب أحوالهم أكثر من أي شيء آخر. ولهذا أخذ هذا الدين الجديد يتتطور ويكبر. والتاريخ يخبرنا أن كل بدعة تصبح شيء مقدسًا بمرور وقت طويل على ابتداعها. وهكذا أخذ الدين الجديد يلبي مسحوق القدسية بمرور الزمن... حتى لم يعد من الممكن الآن أن يتصور الإنسان أن هناك أموراً في كتب الفقه لا تطابق روح القرآن والسنّة، أو أن بعض أقوال الصوفية وقصصهم قد تكون خاطئة، أو أن هناك في (المعقولات) الرائجة ما هو ليس بمعقول. وكان من الطبيعي في مثل هذا الجو ألا يجد القرآن سوى خانة (البركة)، فأصبح كتاباً

¹ { وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يفكرون } . السحل : 44.

للتلاؤة والحصول على البركات... ووصل الأمر إلى أن الذين فسّروا القرآن في العصور المتأخرة لم يكونوا يتroxون سوى الحصول على (الثواب) أو أن يثبتوا أن مدرستهم الفقهية أو الصوفية أو الكلامية تطابق القرآن... إلا ما شاء الله.

إن أكبر ضرر نجم عن الإضافات التي لحقت بالإسلام في صورة الفقه والتتصوف وعلم الكلام (القائم على المنطق اليوناني القديم) هو أن الأمة ضلّت عن القرآن. إن هذه الإضافات أحالت الدين إلى "فن". والشيء الذي يبيّنه القرآن بأسلوب بسيط وفطري، أضيفت إليه تفريعات جديدة لخلق مشكلات ومسائل معقدة، واخترعوا مصطلحات لا تحصى لشرح هذه المشكلات والقضايا بأسلوب فني. وهكذا تحول الدين الإلهي إلى مجموعة من الأحكام والمسائل التي لا تعرف إلا بدراسة الكتب الفنية، بينما لا يمكن معرفتها بدراسة الكتاب الإلهي.

واليوم لا يجول بخاطر الذي يريد معرفة "مسائل" الصلاة أن يدرس القرآن لهذا الغرض لأنّه يعرف أنه سيجد هذه المسائل في كتب الفقه. والذي يريد تربية روحه لن يتوجه إلى كتاب الله ليبحث فيه عن طريق السلوك الروحي، بل سيقصد أحد "الشيوخ" لأنّه يعرف **فن** آداب "فن الروحانية" لا تكتسب إلا من أحد خبرائها. وهكذا، فإن من يريد اليوم إقامة الأدلة العقلية على دعوة الإسلام فهو لن يبحث عنها في القرآن بل سيغوص في بحر المعقولات، لأنّه يعرف أنّ دقائق هذا الفن لا توجد إلا في كتب المعقولات.

إن الله لم ينزل القرآن إلا ليهتدي به الناس بتدرّبه¹. ولكن بتحويل التعاليم القرآنية إلى فن لم يعد القرآن كتاب هداية و تدبر، بل تحول إلى كتاب تلاوة وأصبحت آخر منافعه أن يكمل الإنسان تلاوته كل يوم أو كل أسبوع "للبركة". لقد أخذ الناس يتلقون دينهم من أحبائهم ورهبانهم واعتبروا القرآن شيء

¹ قال تعالى : {كتاب أنزلناه إليك مبارك ليذروا آياته ولينذكروا أولوا الألباب} سورة ص آية 29.

للتكبر به فلقوه في غلاف أنيق من القماش ووضعوه في مكان لائق. وكان هذا طبيعيا لأن معظم التفريعات التي اعتبروها دينا لا توحد في القرآن البتة.

والحرمان من كتاب الله لم يقف عند هذا الحد بل انسحب على حياتنا بأكملها. إن الله تعالى قد فصل كل شيء في القرآن وهو لذلك غذاء فكري لكل مؤمن. ولكن بسبب التطور الآنف الذكر لم يعد الناس يبحثون في القرآن عن كل قضايا الإسلام والمسلمين.

إنك لو درست القرآن، بدون خلفيات وأفكار مسبقة، فستجد بدون ريبة أن قضية الإنسان الكبرى عند الله هي أنه سيقف أمام رب يوم القيمة للحساب عن أعماله في الدنيا... والرسالة الحقيقة الملقة على عاتق المسلمين هي إعلام كل شعوب الأرض بخطورة هذا اليوم القادم. ولكننا نرى أنه لم تقم حركة تدعو للقيام بهذا الواجب، بالرغم من نشوء عدد لا يحصى من الحركات الإسلامية في القرون الأخيرة.

إن الذين تصدوا "للبعث الإسلامي" في العصر الحاضر كانوا علماء، وكانوا يقرؤن القرآن، بدون شك، ولكن علوم الفقه والتصوف والكلام هي التي صنعت خلفيتهم الفكرية، ولهذا انحرفوا عن صراط القرآن المستقيم. فالذين غلب على فكرهم علم الكلام أخذوا يقيّمون "المناظرات" وأمجادلات لخدمة الدين، والذين غلب عليهم التصوف أخذوا يجاهدون لمستقبل الأمة ب التربية الناس في "التكايا"، وأما الذين تأثروا بالفقه فأخذوا ينظرون إلى الإسلام "كظام" لا يمكن تنفيذه إلا بإنشاء "حكومة إلهية" لتطبيق القوانين الإسلامية المدنية والجناحية. وتشبع عامة الناس بهذا الأسلوب الفكري حتى لم يعودوا يتندرون للقيام بأهداف الإسلام الأساسية الحقيقة.

وكانت النتيجة أنه لم يبقى لهم سوى عملين لكسب "الثواب" وهما: التبرع

لإنشاء المساجد والمدارس الدينية، وتقديم "الهدايا" للمرشدين والشيوخ. وهم لا يكادون يرون أن هناك أعمالاً أخرى أهم من هذين العملين، وللسبب ذاته فلا أمل يذكر في الحصول على تعاون منهم لإنجازها.

إن إنساناً ما متحرراً من الخلفيات المسبقة، لو ألقى نظرة على مكتبتنا الإسلامية فسيشاهد فرقاً مدهشاً فيها، ألا وهو الفرق الشاسع الكبير بين الدين المُنْزَل والدين المدُون، الذي ترعرع في العصور المتأخرة. إن دين الله بسيط وفطري في كتابه وسنة رسوله، وهو يلهب الفؤاد ويُصْقِل العقل. ولكن العلوم الإسلامية المدونة في الكتب البشرية لا تُعدو أن تكون أبحاثاً جافة.. لا تلهب القلوب.. إن القرآن يحتوي على الفقه ولكنه يختلف عن فقه كنز الدقائق "الأي البركات النسفي"، والقرآن يحتوي على الجانب الوجداني ولكنه لا يشبه تصوف ضياء القلوب "اللّهاج إمداد الله المهاجر المكي"، والقرآن يحتوي كذلك على المعقولات، ولكن لا علاقه له بمعقولات الشمس البارزة "للملا جيون الجنبوري".

وهذا لا يعني أن تدوين العلوم الإسلامية كان أمراً غير مطلوب في نفسه. إن تدوينها كان مطلوباً بدون شك. ولكن الاتجاه الذي سار عليه التدوين في القرون المتأخرة لم يكن صحيحاً. فقد كان المطلوب تدوين العلوم الإسلامية بالأسلوب التذكري، وليس بالأسلوب الفني الذي راج بالفعل. إن الله تعالى قد جعل دينه "ميسراً" لأجل الذكر والنصيحة قال تعالى "ولقد يسرنا القرآن للذكر" (القمر:17) ولكننا نحن عقدناه وصعّبناه بمباحثنا وتقولاتنا المعقّدة.

إن القرآن هو "الذكر" أي النصيحة قال تعالى "إن هو إلا ذكر وقرآن مبين" (يس:69) و "التدبر" قال تعالى "ليدبروا آياته" (ص:29) و "العلم" قال تعالى "فسوف تعلمون" (الزمر:39) و المطلوب في القرآن ليس إلا ما يفيد الذكر والنصيحة. ولنا في رسول الله ﷺ أسوة حسنة واضحة حول تفصيل العلوم

القرآنية وتوضيحيها، لأنه ﷺ كان مأموراً بذلك من عند الله، قال تعالى "وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم" (النحل: 44)، وقد قام النبي بعمله هذا على أكمل وجه.

إن هذه الأمور تدل على أن تدوين العلوم الإسلامية لا يعني الإضافة الفنية إليها أو اختراع مباحث جديدة فيها استخراجاً حتى يصبح القرآن "الذي يقول عنه الإمام الغزالى إنه يحتوي على خمسمائة حكم فقط" علماً على مجموعة من خمسمائة ألف حكم. فتدوين العلوم الإسلامية يعني تبيينها وتفصيلها لتحتوي على مواد الذكر والنصيحة. والقرآن يأمرنا بالإستمساك بأحكامه، ويطالبنا بتدبر آياته. أما البحث عن التفصيلات والمعانى في القرآن فهو أمر جدّ مرغوب فيه. ولكن هذا البحث يكون عن مواد الذكر والنصيحة وليس لأجل التحديات الفنية والتفريعات القانونية.

ولو أرسل سكان قرية ما يسألون دار الإفتاء السؤال التالي: إن الجزء المسقف من مسجدنا كان يضيق على العدد المتزايد من المصلين ولم يكن توسيع مساحة المسجد نفسه ممكناً فقمنا بتسقيف فناء الجامع كله فهل يمكن استخدام سقف الجامع لأداء الصلاة لضرورات موسمية؟... فسيعمد المفتى من فوره للرد على هذا الإستفتاء كمسألة شرعية، وسيفتتى بأنه يجوز استخدام السقف لأداء الصلاة ببراعة كذا وكذا من الشروط. هذا بالرغم من أن تحويل كل أمر إلى "مسألة شرعية" ليس من الإسلام في شيء بل هو أسلوب اليهودية الذي جاء خاتم الأنبياء للقضاء عليه. وفي زمان الرسول والصحابة لم يكن يرد على سؤال من هذا النوع برد محدد بل ربما قيل للسائل: إن الموضوع ليس مسألة شرعية، وعليه أن يتصرف وفقاً لأحواله.. وتوجد في كتب الأحاديث والسير أمثلة كثيرة لتبسيط مثل هذه الأسئلة بدلًا من الرد عليها. أما مفتى اليوم - غالباً - فكل أمر عنده مسألة شرعية وهو يكتشف دائماً جزئية في كتب الفقيه للرد، في

ضوئها، على الوضع الشرعي للمسألة. وكان ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهما يقولان: "إن من أفتى الناس في كل ما يسألونه عنه مجنون".¹

وكان القرآن قد خاطب اليهود عن النبي ﷺ قائلاً:

"ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم" (الأعراف: 157).

وهذا يعني أن النبي يحرر اليهود من الأعباء والقيود التي فرضها عليهم فقهاؤهم وأحبارهم بتفرعياتهم التشريعية ومباغتهم في التظاهر بالتقى، وأنه يقدم إليهم الدين الإلهي في صورته الحقيقة المجردة من الشوائب. بينما أمة خاتم النبيين نفسها تئن اليوم تحت "الإصر والأغلال". وقد أضاف الفقهاء والمشايخ إلى الإسلام ما يشبه تلك الإضافات التي قام بها فقهاء اليهود والفريسيون لتشويه الشريعة الموسوية. وأول واجب لتجديد الإسلام اليوم، هو تطهيره من كل هذه الإضافات. وبدون القيام بهذا الواجب لا يمكن لنا أن نخطو خطوة واحدة إلى الأمام لإحياء الإسلام في العصر الحديث.

إن إحالة الدين الإلهي إلى "فن" يبدو في ظاهره أمراً جميلاً، أو بريئاً على الأقل، ولكنه أمر شديد الخطورة من حيث نتائجه.. فالدين الفني يوجد القسوة في القلوب ويحرم الإنسان من المشاعر اللطيفة. أما لغة الدين الإلهي في القرآن والسنة فهي لغة الإنذار والتبشير والتذكرة والنصيحة. وكل الدينين - الإلهي والفنـي - يختلف عن الآخر إختلافاً كاملاً، وكلاهما ينشئ نتائج مختلفة تماماً. فأسلوب القرآن والسنة يوجه الإنسان نحو الحقائق والمعانـي، بينما علومـنا الفنية تشغلـنا في الجـزئيات. وأسلوبـ القرآن والسـنة يعلمـ الإنسانـ الفكرـ والتـدبرـ، بينما تفتحـ العـلومـ الفـنـيـةـ أبوـابـ النـقاـشـ والـجـدـالـ العـقـيمـ بـدـوـدـ. وأـسـلـوـبـ القرآنـ والسـنةـ يـوـقـظـ مشـاعـرـ الإـنـسـانـ حـتـىـ تـغـدوـ قـضـيـةـ الـآـخـرـةـ أـعـظـمـ قـضـيـةـ أـمـاـهـ.

¹ جامع بيان العلم وفضله، ج 2، ص 164.

بينما العلوم الفنية تشغل الأنسان عن قضايا الحياة الأساسية وتلهيه في التفريعات المنطقية الخرافية. وهكذا فإن هذه العلوم الفنية، بالرغم من مظاهرها البريء الجائز، قد أجهزت - من حيث النتيجة - على الهدف الذي من أجله أنزل الله تعالى كتابه وأرسل رسوله.

وليس هناك من سبيل لإصلاح هذا الوضع سوى جعل القرآن والسنة، من جديد مصدراً حقيقة يتلقى منه الناس دينهم. وعلى سبيل المثال، فإن القرآن يحتوي على أساس الصلاة، والمسائل الأخرى الضرورية موجودة في السنة وأثار الصحابة الكرام. ولذلك يجب ألا يحوي كتاب عن الصلاة إلا ما ورد في هذه المصادر الثلاثة، ولا يعتبر أي شيء آخر مسألة من مسائل الصلاة ولو من جانب الترجيح والتفضيل، لأن اختلاف الصحابة حول أمر ما يعني مرؤنة الدين. ولا يصح أن يقال عن موقف أحدthem أنه صحيح وموقف الآخر خطأ أو أن أحدthem أفضل من الآخر.

إن معظم ما يسمى بـ "أمهات الكتب" في مكتبتنا العربية قد صيغ بهذه اللغة الفنية. وفنون الفقه والمعقولات والتصوف تلقي بظلالها على مكتبة العصور الإسلامية المتأخرة، تماماً كما تحيط الهالة بالقمر. وكانت النتيجة أنه بالرغم من بقاء متن الإسلام سليماً، أصبح الإسلام العملي التقليدي مشوباً بالشوائب البشرية التي أصابت الأديان السماوية الأخرى من قبل. ومادامت هذه الكتب هي مصدر الناس لفهم الدين فلن يكون للفكر الديني الصحيح مكان في عقولهم. و لا مناص من اتخاذ القرآن والسنة وأثار الصحابة مصدراً لاكتساب "علم الدين" بدلاً من الكتب التي تدرس في معاهدنا وجامعاتنا الإسلامية. والخطوة الأولى لإحياء الإسلام هي تدوين علوم القرآن والسنة وأثار الصحابة بأسلوب علمي بسيط وترك الأسلوب الفقهي الكلامي الصوفي للتاريخ. فلا يمكن إحياء الإسلام بدون تطهير الدين الإلهي من شوائب البشر.

إن تدوين العلوم الإسلامية ليس عمل شخص أو اثنين. بل لابد له من مجمع يجتمع فيه عدد معقول من رجال العلم الأكفاء القادرين على إجراء البحوث العلمية. ويشرط فيهم أن يكونوا مستوعبين لعلوم القرآن والسنة. ولو اجتمعت مجموعة من هذا النوع، وعملت باستقرار، وتوفرت لها كل الإمكانيات الضرورية فإنني أعتقد أنه من الممكن، إن شاء الله إعداد المكتبة الإسلامية خلال عشر سنوات من الزمن، تلك المكتبة التي ستكون البنيان الفكري الحقيقي للجهاد الرامي إلى إحياء الإسلام. فإن كانت هذه الأمة تريد أن تعتبر يوم القيمة أمة محمد فواجبها الأول أن تظهر "هدي محمد" من الشوائب البشرية لتقديمه إلى العالم في صورته الحالمة الناصحة. إن هذه الأمة تقترب اليوم جريمة كتمان الحق فعلا، إن لم تكن إرادةً. وعليها أن تعرف جيداً أن الله لا يقبل من أمة أمينة على رسالته عملاً ما إن كانت تكتم الحق.

إن الحكمة تقتضي أن ينجز هذا العمل اجتماعياً بدلاً من أن يكون نتاج عمل فردي. فالعلوم التي لها أهمية اجتماعية لابد من أن تدوّن على المستوى الاجتماعي حتى تحصل على المكان اللائق بها لدى الأمة وللتظفر بالقبول لدى الجميع.

وحيث دون القرآن في عهد أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه، بإشراف الدولة، أحرقت النسخ الانفرادية الأخرى بسبب هذه الحكمة، ولو دون القرآن بجهود انفرادية لتفجر خلاف شديد ما كان ليهدأ قبل يوم القيمة.

ولعل عمر بن عبد العزيز، أيضاً، وضع مثل هذه الخطة لجمع الأحاديث النبوية، وتدوينها، فكتب إلى عامل المدينة محمد بن عمرو ابن حزم وإلى العمال الآخرين بأن يكتبوا كل ما يحصلون عليه من حديث الرسول وسنته. ولكن هذا العمل لم يتحقق بإشراف الدولة الإسلامية بسبب موته المبكر. ثم

أخذ بعض الأشخاص يقومون بجهود انفرادية بدافع كسب "الثواب". لقد كان الأسلوب الأفضل أن يحثّ المحدثون الخلافاء على إنشاء مؤسسة رسمية لتدوين الحديث، ثم تجتمع فيها جماعة مختارة من المحدثين لتدوين الأحاديث الصحيحة، مثلما فعل زيد ابن ثابت الأنباري وجماعته عند تدوين القرآن، فتحرق كل الأحاديث الأخرى. ولو تحقق هذا لنجد الأمة من الفتن التي لا تزال تلاحقها.

وتدوين الفقه، أيضاً كان ينبغي أن يتم بالأسوة الصدّيقية بدلاً من إزواء الفقهاء في مدارس فكرية قسمت الدين الإلهي الواحد إلى عشرات المذاهب المختلفة. وهكذا فإن الأسلوب الصحيح للقيام بمسؤولية تدوين العلوم الإسلامية اليوم هو جمع مجموعة من رجال العلم الأكفاء لتعده، بجهود إجتماعية مشتركة، مجموعة من الكتب المطلوبة. ولن يمكن تحقيق الهدف المنشود لو أنجز هذا العمل بجهود فردية.

مجموعة الكتب المطلوبة

إن مخطط تدوين العلوم الإسلامية، لإيجاد مجموعة الكتب التي يمكن تقديمها للتعرف بالإسلام، يمكن أن يكون على الوجه الآتي.

أ- القرآن الكريم:

- 1 - ترجمة معاني القرآن بمختلف اللغات للذين لا يعرفون اللغة العربية.
- 2 - تدوين أحوال الشعوب والأنبياء المذكورين في القرآن بالأسلوب التاريخي الحديث باستخدام المعلومات القديمه وكشوف الحفريات.
- 3 - شرح الإشارات القرآنية حول آيات الكون، باستخدام تفاصيل العلوم الحديثة.
- 4 - تدوين تعاليم القرآن في صورة أبواب حسب الموضوعات.

ب - الأحاديث:

جمع الأحاديث القوية الإسناد، بعد استبعاد الروايات الضعيفة والموضوعة، في مجموعات مختلفة مثل:

- 5 - الروايات التفسيرية.
- 6 - الروايات التاريخية.

7 - روایات الأحكام.

8 - الروایات التذکریة.

ج - السیرة:

9 - تاریخ نبی الإسلام الشامل بأسلوب تاریخي بسيط، بحيث لا يقتصر على ذکر الغزوّات....

10 - تاریخ الصحابة الشامل، بحيث لا يقتصر على الغزوّات والحروب.

11 - تاریخ الإسلام الكامل وليس تاریخ الفتوحات فقط.

د - الكتب المساعدة:

12 - الصحف السماوية - تاریخها والتعريف بها.

13 - أعلام الإسلام [معجم لأهم شخصيات التاريخ الإسلامي].

14 - قاموس الإسلام [دائرة معارف إسلامية مختصرة].

15 - معجم الحديث [فهرسة شاملة للأحاديث في المجموعات الآنفة الذكر].

16 - تاریخ الدعوة الإسلامية (كتاب أكثر شمولاً على غرار كتاب البروفسور آرنولد "الدعوة إلى الإسلام"¹ [Preaching of Islam]).

¹ هذا الكتاب مترجم إلى العربية بعنوان الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة حسن إبراهيم حسن وآخرين ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية . المترجم.

الجهود الإصلاحية والتجددية¹

بدأت قضية العصر الحديث والإسلام في القرن السادس عشر حين تمكن البرتغاليون من اكتشاف الطريق البحري المؤدي إلى الهند، فسيطروا على بحيرة العرب والمحيط الهندي فعمرقلاوا تجارة العرب مع شرق آسيا. وكان اختراع المحرك الدخاني في القرن السابع عشر، وظهور العلوم الطبيعية الحديثة في القرن الثامن عشر بمثابة إضافات جديدة لقوة أوروبا. وقد وصلت غلبة الغرب على الشرق إلى أوجها حين شقّت قناة السويس سنة 1869 ففتحت طريقاً مباشراً بين البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر. وكان المسلمون غافلين عن الغلبة الأوروبية طالما لم تجاوز السيطرة على المراكز والأسواق التجارية. ولم ينتبه زعماء الإسلام إلا حين أكمل الأوروبيون سيطرتهم الاقتصادية بالغلبة السياسية على العالم الإسلامي.

ثم بدأت حركات متنوعة تظهر في العالم الإسلامي منذ أواخر القرن التاسع عشر. ولكننا نجد أن جميع الحركات الإسلامية التي قامت خلال هذه المدة لم تقم إلا بدوافع الانفعال. ولا توجد بينها حركة واحدة تولدت بدافع إيجابي. إن تدخل القوى الأجنبية في المجتمع المسلم أوجد مشكلات وقضايا متعددة، وكرد فعل على هذا الوضع قام بعض الناس بنشاط حركي إسلامي كان - كما ذكرنا -

¹ ألقى الأستاذ وحيد الدين خان هذه المحاضرة ضمن ندوة "الإسلام في عالم متغير" بجامعة عليكرة الإسلامية ، بالهند ، في 25 يناير 1977 . وقد سبق نشر هذه المحاضرة في كتاب المؤلف "المسلمون بين الماضي والحاضر والمستقبل" (القاهرة ، دار المختار الإسلامي ، 1978، ص 45 . 55) . المترجم.

نتيجة أحوال خارجية وليس نتيجة الفكر الإيجابي النابع من التعاليم الإسلامية وتدبر للسيرة النبوية.

و هذه الحركات الانفعالية ذات اتجاهات شتى، ويمكننا أن ندرسها تحت عناوين أربعة:

1 - حركات المواجهة.

2 - حركات المحافظة.

3 - حركات الإحياء.

4 - حركات التعمير.

فأما حركات المواجهة فقد ظهرت في صورة حركات التحرير السياسية. وقد ظهر بيننا عدد لا يحصى من القادة السياسيين الذين نهجوا هذا الطريق، ابتداء من السيد جمال الدين الأفغاني (1838-1897) إلى أبي الكلام آزاد (1888-1958). وقد ملأ هؤلاء بخطبهم ومقالاتهم العالم الإسلامي كله حماسا ونشاطا. وكان الأفغاني ينادي بـ"مصر للمصريين" ورفع سليمان الباروني إبان الاحتلال الإيطالي للبيضاء شعار "موتوا اليوم أعزاء قبل أن تموتوا غداً أذلاء".

إن كل القادة السياسيين رفعوا هتافات مماثلة وقد ضحى الملايين بحياتهم للنجاة من الغلبة الأجنبية وتکبدوا في ذلك خسائر لا تحصى.

ويصح القول اليوم إن هذا الكفاح قد وصل إلى هدفه المنشود في معظم البلاد، وإن كانت الحقيقة هي أن الذي تسبب في انتصار حركات التحرير هو تطاحن القوى الاستعمارية الغربية فيما بينها والذي وصل إلى ذروته في الحربين العالميتين الأولى والثانية.

و لكن انتصار حركات التحرير لم يحقق الآمال التي ضحي بحياتهم من أجلها المليون شهيد من الجزائريين والمئتا ألف من الهنود. إن شعوب الغرب لا تزال تهيمن على الشعوب الإسلامية. والتغير الوحيد الذي طرأ هو أن هيمنة الغرب علينا صناعية و اقتصادية اليوم بينما كانت سياسية وعسكرية بالأمس. إن الهيمنة الغربية الجديدة شديدة وصارخة لدرجة أنه لا يمكن وصف سياسات الدول الإسلامية بأنها سياسات مستقلة في حقيقة الأمر. إن الدول الإسلامية تدافع عن نفسها بشراء الأسلحة من ذات الدول الغربية التي تقدم لها المساعدات الفنية لإدارة المجالات التمدنية. إن مؤثرات الغرب قوية، فهو قادر متى شاء على تصفية أحمدو بلو (1966)، وعلى تدمير الحركة الفلسطينية على أيدي الأردن (1971) و سوريا (1976)، وعلى إفشال ثورة إيران الشعبية (1951) أو على دفع مصر للمصالحة مع العدو الذي قال عنه جمال عبد الناصر متباهيا: "نحن أبناء الفراعنة، سترميكم بالبحر".

و حركات المحافظة اتجهت عموما إلى توسيع نطاق التعليم الديني. وكان العلامة شibli النعmani (1857-1914) قد قال: "إن نهضة الشعوب الأخرى هي أن تتقدم إلى الأمام، أما نهضتنا فهي أن نعود إلى الوراء حتى ننضم إلى عصر النبوة"¹ .. وطبقا لهذا أقيمت معاهد ومدارس دينية، لا تحصى، في كل البلدان الإسلامية. وكانت هذه المعاهد تهدف إلى تعليم الأجيال المسلمة اللغة العربية والعلوم الإسلامية لتنضم، من الناحية الفكرية على الأقل، إلى العصر النبوي وكان مؤسسو هذه المعاهد يأملون أن يتمكن الغربيون فيها من وقاية أنفسهم من مؤثرات الزمن.

ونجحت هذه الحركة تماما في إنشاء شبكة من المدارس الدينية في كل أنحاء

¹ يقصد العلامة شibli .. الرجوع في القيم و الأخلاق وفقه القرآن والسنّة .. وليس في الوسائل والعلوم المادية.

العالم الإسلامي.. فلم تبق منطقة ما تخلو من خريجي هذه المدارس. و لكن نجاح هذه المدارس مشكوك فيه فيما يتعلق بتربية العقل و الفكر الإسلامي. فأما الذين توظفوا في مدارسهم ذاتها أو في مؤسسات مماثلة فأبقوا على مظهرهم الذي ورثوه عن المدرسة، لأن ذلك المظهر كان رأس مالهم لإنجاز التقدم في بيئتهم. وأما الذين خرجوا عن إطار المؤسسات الدينية فلم يكونوا مختلفين في شئ عن خريجي المدارس الأخرى. وظل التقدم الوظيفي هو هدف حياة أولئك وهؤلاء، على حد سواء.

ولهذه النتيجة سببان رئيسان:

أولهما: أن قادة التعليم الديني لم يفهموا جيداً أن قضية التعليم الديني لا تتحضر في تدريس اللغة الإسلامية وال تعاليم الدينية، بل هي إعطاء الإسلام المكانة اللائقة به في الفكر المعاصر. إن الجيل الذي تربى في المدارس الدينية كان يتقن العلوم الإسلامية التقليدية، بدون شك، و لكن الإسلام لم يكن جزءاً أصيلاً و حقيقياً من عقله و وجدانه، لأن هذا الجيل يرى أن الإسلام دون مستوى الفكر الحديث الرائق. إن الإسلام الذي درسه هذا الجيل لم يكن أكثر من ملحق وهامش بدلًا من أن يكون هو غذاءه الفكري. و الواضح أن ملحقاً فكريًا من هذا النوع لا يلبث أن يجرفه طوفان الأفكار العالمية.

وثانيهما: أن التغيرات الحديثة قطعت ارتباط التعليم الديني بالاقتصاد. ومن الحقائق التاريخية أن نظاماً تعليمياً محروماً من الأساس الاقتصادي لن يحرز مكانة تذكر في نظام الحياة.

وأقصد بحركات (الإحياء) - وهي الطريق الثالث - تلك التي قامت لإقامة النظام الإسلامي. وقالت هذه الحركات إن السبب في جميع المشكلات التي يواجهها المسلمون في العصر الحاضر هو أن الحكومة الإسلامية غير قائمة على

وجه الأرض، فلو تمكنا من تنظيم المجتمع الإسلامي على أساس الشريعة لحلت جميع مشاكلنا و لأحرز المسلمون على المستوى الدولي ذات المكانة التي كانوا يحتلونها في الماضي لألف سنة منذ ظهور الإسلام.

وقد شرحت هذه الحركات التعاليم الإسلامية بمصطلحات سياسية. الأمر الذي استقبله كثير من المسلمين الحائرين في النصف الأول من القرن الحاضر كأفضل قصيدة عصرية لصالح الإسلام، فتجمعوا بسهولة في المخيم الإسلامي بعكاظ السياسة. ولكن هذه السوق لم تدم طويلا. فيما أن فكر هذه الحركات كان قائماً على الشرح السياسي للإسلام، فسرعان ما اصطدمت بالحكومات الإسلامية في بلدانها. وكان هذا الاصطدام كاصطدام البطيح بالسكين. وكان أحد الرؤساء العرب، حين استخلص لنفسه الحكم، قد هدد أعداءه السياسيين بأنه "سيفرم" وسيسحق كل الذين يعارضونه. ولا شك أن أكثر حكام المسلمين هم من هذا النوع. وقد كانت نوايا هؤلاء الحكام المسلمين أكثر تحققا في حق الحركات الداعية إلى إقامة النظام الإسلامي. إن الحكام المسلمين قد سحقوا هذه الجماعات في كل بلد بحيث يبدو أنه لا يوجد لها مستقبل مرموق في بلد، إلا أن تتدخل مشيئة الله سبحانه و تعالى.

إن فشل الحركات الداعية إلى النظام الإسلامي لا يعزى إلى "إجرامية" أندادها السياسيين وحدهم. فزعماء هذه الحركات يتحملون جزءا من المسؤولية، لأنهم آمنوا بفكرة خاطئة تماما، وهي أنهم قادرون على إنشاء حكومة إسلامية بفضل أصوات الناخبين المسلمين في بلادهم. لقد نسو الحقيقة التاريخية القائلة بأن الحكومات دائماً تقوم وتبقى للأفكار السائدة في عصرها. إن بنيان العصر الفكري قائم على أساس علمانية. ولذلك لا يمكن إنشاء جزيرة إسلامية دون تحطيم حاجز الفكر العصري.

أما حركات التعمير فأقصد بها تلك المدرسة الفكرية التي تقول بتجنب الاصطدام المباشر مع السلطات السياسية، كي يستمر العمل في المجالات الأخرى. ولسوء الحظ، فإن هذا الفكر قلما استقطب المسلمين في العصر الحديث.

يقول الشيخ محمد عبده : إنه خلال إقامته بباريس (1884) قال لأستاذه (الأفغاني) ذات مرة: إن اصطدامنا السياسي مع الإنجليز والفرنسيين ليس ذافائدة تذكر، بينما مجال الدعوة إلى دين الله مفتوح في أوروبا وأمريكا، فلم لا نبتعد عن السياسة ونشغل بالدعوة والتعليم..؟ فاحتقر الأفغاني، بطبيعته الثورية، هذا الأقتراح وأجاب: "إنما أنت مثبط". وباستعراضنا للحركات الإسلامية لا نجد حركة - جديرة بالذكر - قامت في العصور الأخيرة، وركزت على أسلوب التعمير والبناء. وقد ظل الزعماء المسلمون يضخون بأنفسهم لأجل أفكار رومانسية على حد قول شاعر فارسي: "إن الزمن لا يتواهم معك وأنت في خصم مستمر مع الزمن" إن أحدا من الزعماء المسلمين لم ينتبه إلى الفكر الإيجابي الذي عبر عنه الشاعر الهندي المظلوم "حالي" (1837-1914) في بيت شعر له يقول: "اتجه أنت في اتجاه الريح" !

إن هناك مثالين فريدتين في الهند سلكا هذا الاتجاه، وصاحباهما من الشخصيات السيئة السمعة، و أنا أقصد سيد أحمد خان (1817-1898) وميرزا غلام أحمد القادياني¹ (1840-1908) (قبل أن يصل مرحلة الردة والعملة للكفر).

و كان الأول يقول إن الحكومة الإنجليزية قد سدّت علينا أبواب العمل السياسي، ولكن كل أبواب التعمير والبناء الأخرى مفتوحة أمامنا. وكان يقول إننا

¹ لا خلاف حول ضلاله القدياني وكفره عقب إدعائه النبوة ، والذي يشير إليه المؤلف هو أن هذا الشخص كان داعياً ومناظراً يدافع عن الإسلام في بداية بروزه إلى أن كفر . المترجم.

نستطيع أن نتقدم بدون عوائق في مجال التعليم و الاقتصاد اللذين يعتبران أساس كل المجالات الأخرى.

أما ميرزا غلام أحمد القادياني فبحث عن هذا الإمكان في ميدان آخر، وهو ميدان الدعوة. و كان القادياني يرى أن مجال العمل مفتوح للمسلمين بالدعوة داخل الطوائف المختلفة بالبلاد، بل و داخل الشعب الحاكم نفسه.. و هذا لأن الدعوة أهم هدف في الإسلام، و من نتائجها الطبيعية الغلبة التي نفشل في التوصل إليها بجهودنا السياسية وحدها.

و لكن لم تتمكن الحركتان من استقطاب عامة المسلمين. و كان هذا لسبعين أولهما: كانت عقول الرعماء وال العامة قد تبلدت بسبب الانغماض في الأفكار المعادية للاستعمار، و لم يعد ممكناً أن يفكروا بأسلوب آخر. وكل من لا ينادي بمواجهة السياسية مع الاستعمار، كان عميلاً في نظرهم. و وصل الأمر إلى أن زعماءنا وجدوا أن كتاب آرنولد (الأستاذ السابق بجامعة عليكرة الإسلامية) "الدعوة إلى الإسلام" (Preaching of Islam) قد ألف لأهداف استعمارية، لأن الكتاب أثبت أن الإسلام انتشر بالدعوة الإسلامية بدلاً من السيف !!

والسبب الثاني هو أن زعيمي الحركتين فشلاً في تقديم فكرهما بالأسلوب الصحيح. فارتكب سيد أحمد خان حماقة تطبيق أفكار القرن التاسع عشر على القرآن. ويكفي لإثبات صدق نيته أنه أعلن أن مجلته "تهذيب الأخلاق" تمثل فكره وحده دون كلية علكرة الإسلامية. ولكن هذا الفصل لم يكن ناجحاً - عملياً - فأصبحت دعوته مشبوهة في أعين الناس، لأنها قامت على استدلال غير صحيح لإثبات قضية صحيحة.

و ارتكب القادياني أيضاً خطأً مماثلاً، فحين بدأ عمله كان سائر الرعماء المسلمين منشغلين بالجهاد ضد الإنجليز، وشعر المجاهدون المتخمسون بأن

القادياني يريد صرف المسلمين عن جبهة الجهاد المقدس. ورد القادياني قائلًا: إن الجهاد القتالي ليس حكماً شرعياً دائماً وثابتاً، فأفتى العلماء بأن القادياني عميل للإنجليز.. وهنا خطأ القادياني خطوة أخرى تأكيداً على كلامه فزعم أنه يتلقى الوحي وأنه لا يقول شيئاً إلا بأمر من السماء. إن هذا الإدعاء الضال، مع كل أخطائه، لم يكن فريدياً في الزمن القديم. فكثيرون من أسلافنا، وعلى سبيل المثال شاه ولی الله الدهلوی (1762-1703) يستخدم عبارات مماثلة لقوله: "الهمني ربی". ولكن خطأ القادياني زاد شناعة حين ادعى بصراحة أنه رسول الله، الأمر الذي أجمعـت الأمة على كفر قائلـه بعد ختم النبوة - وهو اجماع صحيح وفي موضعه - !!

ونتـج عن هذا أنـ الحوار الذي كان يـنـبغـي أنـ يـجـري بينـ الـطـرـفـينـ حولـ "ـتـخـطـيـطـ الـعـمـلـ إـلـاسـلـامـيـ فـيـ الـظـرـوفـ الـراـهـنـةـ"ـ تـرـكـرـ عـلـىـ تـفـسـيـرـ جـدـيدـ لـلـقـرـآنـ وـ عـلـىـ اـدـعـاءـ نـبـوـةـ جـدـيـدـةـ بـعـدـ النـبـوـةـ الـمـحـمـدـيـةـ.ـ وـ إـنـ كـانـ مـعـارـضـوـ سـيـدـ أـحـمـدـ خـانـ وـ مـيـرـزاـ غـلامـ أـحـمـدـ الـقـادـيـانـيـ مـخـطـئـينـ فـيـ بـدـاـيـةـ الـأـمـرـ،ـ فـإـنـ السـيـدـ أـحـمـدـ وـ الـمـنـتـبـيـ الـقـادـيـانـيـ اـرـتـكـبـاـ أـخـطـاءـ أـشـنـعـ،ـ فـيـ نـهـاـيـةـ الـأـمـرـ،ـ وـ مـ نـظـفـرـ الـأـمـةـ بـشـئـ سـوـىـ فـتـاوـيـ الـكـفـرـ وـ الـفـسـقـ...ـ

الخطوة الأولى: جامعة إسلامية

كتب السير كيث (1866-1955) في كتابه "نظريّة جديدة حول الارتقاء البشري" في معرض دراسته للتاريخ مصر القديمة: "إن السيف لم يفتح المصريين، بل القرآن هو الذي فتح قلوبهم"¹ إن هذه القوة الفكرية التي اعترف بها هذا المؤرخ الإنجليزي هي التي فتحت قلوب كل الشعوب الإسلامية الأخرى التي تعيش فيما نطلق عليه "العالم الإسلامي" في آسيا وأفريقيا. فكيف حدث أن هذه الشعوب نبذت أديانها القديمة، بل ولغاتها المحلية في كثير من الأحيان، ودخلت دائرة الأخوة الإسلامية؟ و لعل الرد على هذا السؤال هو أن المدارس والمعاهد الإسلامية التي أنشأها العرب المسلمين عقب فتح هذه البلاد الجديدة هي التي قامت بالدور الأكبر في استقطاب عقول هذه الشعوب.. وكانت هذه المدارس والمعاهد تدرس اللغة العربية والقرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة. وكان المتخرون في هذه المؤسسات التعليمية يعودون إلى مناطقهم فيؤسسون هناك مدارس جديدة على غرار المدارس التي درسوا بها. إن عمل الدعوة القائم على المدارس الدينية هو الذي أحدث التغيير الكبير في الخريطة الدينية والحضارية واللغوية لجزء كبير من العالم خلال قرن من الزمان.

والقرآن معجزة دائمة. لقد تحدث خالق الكون إلى عباده عبر هذا الكتاب. فهو

Sir Arthur Keith, *A new theory of human evolution*, London, Watts & Co., 1950, ¹
p 303.

حلقة الاتصال بين الرب و عباده في هذا العالم. إنه يلهب القلوب ويحيي المشاعر. إن مضمونه العليا وأدبها السماوي يجبران كل من يقرؤه بتذكرة على قبول صدقه.

وحياة الرسول الكريم و أصحابه من الواقائع المدهشة في تاريخ البشرية. وهذه الواقائع تتمتع بخاصية قصوى لإحداث التغيير في حياة البشر. و كانت مدارس القرون الأولى تحدث هذا التغيير عبر التركيز على تدريس القرآن الكريم و سنة النبي الكريم و أصحابه. فهذه المدارس كانت تعلم الدارسين اللغة العربية بأسلوب بسيط ثم ترکهم ينهلون من منابع خزائن الإيمان و حرارة القلوب - القرآن الكريم و السنة النبوية. فكان العلم الديني لدى المتخرجين من هذه المدارس بمثابة صحبة الرسول الكريم و أصحابه الكرام. فكان كتاب الله يواظب فطرتهم وكانت سنة الرسول الكريم وحياة صاحبته قلوبهم بالحرارة التي تدفعهم نحو العمل و الانطلاق لنشر الدين الإلهي. وهكذا كان يظهر إلى الوجود جيش من البشر لا يعرف سوى العيش لله والموت لله..

أما اليوم فلدينا من المدارس و المعاهد الدينية و الجامعات الإسلامية أكثر من أي وقت مضى على هذه الأمة. ولكن هذه المؤسسات العلمية عمقت عن تخریج أمثال الذين كانوا يتخرجون في مؤسسات القرون الأولى من تاريخنا. والسبب في هذا هو أن هيكل مدارسنا العصرية يختلف تماماً عن مدارس الصحابة والتابعين ومن تبعهم من العلماء. إن مدارس العصر الحديث حولت تعليم الدين إلى تعليم فن. في بينما نزل القرآن ليبعث الورع و الخوف في قلوب سامعيه وقارئيه ولكي تتنزلن قلوبهم من خشية الله. فإن مدارسنا العصرية تدرس القرآن كجزء هامشي من مناهجها. أما سنة رسول الله و وقائع الصحابة، التي هي بمثابة حياة دافقة وغودج أعلى للتغير الأكمل في تاريخ البشرية، فلا تجد مكاناً في مناهج مدارسنا التعليمية. أما الأحاديث والآثار فلا تدرس في مدارسنا إلا لكي تكون عنواناً للخوض في مناقشات غير منتهية حول جزئيات

فقهية اختعنها. أما "العلوم العقلية" التي تدرسها هذه المدارس فقد عفا عليها الزمن، وهي لا تفعل شيئاً سوى ترسیخ الجمود في العقول وتعويذها المماحكة والمجادلة الكلامية التي لا طائل من ورائها. وكان ينبغي أن تكون أجواء المدارس الدينية معمورة بالتكبير لله.. و لكن واقع مدارسنا الدينية الحالية أدى بها إلى اتخاذ "أكابر" .. أحياء أو أموات. وكل الأنشطة داخل هذه المدارس موجة لتمجيد هؤلاء "الأكابر" .. فكيف يمكن، و الحالة هذه، أن يتزود طلبها بزاد الحرارة الأيمانية، و أن يصاغ بها الرجال ذو الخلق الإنساني الرفيع ؟ وأنى لهذه المؤسسات أن تخرج الذين يعيشون لله و للآخرة، و أنى لها أن يتفجر منها الإعصار الذي تدفق من بين جدران مدارس العصور الأولى فساد العالم نوراً وهداية.

ولنفهم الدور المطلوب من المدارس الدينية من هذا المثال: لتخيل مجموعة من الناس تتمشى في حديقة الحيوانات، و إذا بأدارة الحديقة تعلن فجأة أنأساً قد أفلت من قفصه الحديدي.. وسيعني هذا الأعلان شيئاً واحداً لكل زوار الحديقة و هو أن يهربوا بأقصى سرعة نحو الباب للنجاة من الأسد.. إن أنشطة كل الناس داخل الحديقة سوف تتركز حول الأسد الهارب. و سيغدوا العلم بإفلات الأسد من قفصه والخوف منه شيئاً مترافقين.. ومثل هذا الإدراك والسعى للهروب وإنقاذ الآخرين من الهلاك هو المطلوب من التعليم الديني.. فغاية التعليم الديني هي تعريف العبد بربه و تربية الشعور الإنساني لأدراك خالقه و بارئه لكي يقيم العلاقة الصحيحة به. و لو تكون هذا الإدراك في عباد من العباد فسنجد أن واقعة هروب الزوار من حديقة الحيوانات ستقع في حياته بشكل أكبر لإنقاذ البشر من خزي الآخرة. فخالق الأسد أقوى من الأسد. و يمكننا أن نقتل الأسد أو أن نلوذ بشيء للوقاية منه، و لكن لا سبيل من الإفلات من قبضة رب العالمين.. وهذا هو السبب في أن جوًّا عامراً بالتعليم الديني الحقيقي سيكون هو جو الخوف من الله. إن معرفة الله و الخوف منه

سيصبحان شيئين متزادفين. و الحقيقة هي أن مؤسسة تعليمية خالية من جو الخوف من الله لن تكون مؤسسة تعليمية دينية.

يقول الله تعالى في القرآن الكريم: إن العالم هو الذي يخاف الله تعالى: {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءَ} (فاطر: 28) وقد قال رسول الله ﷺ: "أعلمكم بالله أشدكم له خشية"^١. وقال بن مسعود: "ليس العلم بكثرة الرواية، إنما العلم خشية الله"^٢ و قال مجاهد: "الفقير من خاف الله"^٣، و قال عطاء: "من خشى الله فهو عالم"^٤. أما الحسن البصري فقد قال: "العالم من خشي الرحمن بالغيب"^٥.

ولو أردنا أن نزن المدارس الدينية المعاصرة بهذا المعيار فسنجد أنها تخلو من هذه الكيفية.. والسبب في هذا هو أن أسس هذه المعاهد والمدارس لم توضع على خشية الله وتقواه، بل هي أ始建 لتعليم بعض الفنون والعلوم. وهذه المؤسسات تخرج علماء هذه الفنون. وهي قد لا تكون فاشلة في أداء أهدافها التأسيسية.. أما فيما يتعلق بتدريس علم الدين الحقيقي فهي فاشلة دونما شك..

وقد روى عن الإمام مالك قوله: "لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها" .. وهذا القول ينطبق على العصر الحاضر تماما كما ينطبق على العصور السالفة. فالإحياء الذي وقع لأجيال الإسلام الأولى كان أساسه القرآن الكريم وسنة رسول الله ﷺ. ويمكن إحداث هذا الإحياء في حياة المسلمين المعاصرين باستخدام القرآن الكريم والسنة النبوية. و أكثر الوسائل عملية هو أن نؤسس مدارس دينية على طراز القرون الأولى التي كان أساس مناهجها التعليمية قائما على القرآن الكريم

^١ تفسير النسفي .

^٢ جامع بيان العلم وفضله ، ج 2 ص 25 .

^٣ المصدر السابق ص 49 .

^٤ المصدر السابق .

^٥ تفسير بن كثير .

والسنة النبوية بدلًا من الفنون والعلوم التي استحدثت فيما بعد.

إن الحاجة تقتضي أن نقيم مدارس على الطراز القديم وأن ينطلق العمل لصلاح حال الأمة المسلمة على أساس مثل هذه المدارس، وينبغي أن تكون مناهج هذه المدارس بسيطة وغير فنية، ويمكن أن نقسم التعليم بهذه المدارس إلى مراحل أربع:

المرحلة الأولى: دراسة اللغة العربية والقرآن الكريم.

المرحلة الثانية: دراسة الحديث والسيرة النبوية وأحوال الصحابة والتاريخ الإسلامي - باللغة العربية.

المرحلة الثالثة: دراسة بعض اللغات العالمية والأديان الأخرى و الفلسفة الحديثة و معلومات علمية ضرورية.

المرحلة الرابعة: إعداد رسالة بحث باللغة العربية حول موضوع إسلامي.

إن قيام مدرسة من هذا النوع سيكون عملاً جليلاً من الأعمال المطلوبة في العصر الحديث.

وليس من الضروري أن نضع كتبًا دراسية جديدة. فيمكننا بكل سهولة أن ننتخب من مجموعة الكتب العربية القديمة ما يلائم للوفاء بحاجات هذه المدرسة. أما تدريس اللغات و العلوم الحديثة فليس من الضروري أن نضع كتبًا لذلك، بل يمكننا اقتناء كتب ألفها آخرون. وسنواجه مشكلة توفير الأساتذة الأكفاء.. ولكن لو ارتفعنا عن الحدود المذهبية والإقليمية فسننثر على الأساتذة الذين نبحث عنهم، بشرط أن نوفر لهم الرواتب المعقولة ونعاملهم برحابة صدر و بتكرير لائقين.

الفهرس

الصفحة

5	تمهيد
9	تجديد الدين
8	١- الفقه
24	الحل
27	٢- التصوف
34	اللغة الوصفية
42	٣- علم الكلام
47	معقولات إسلامية
54	نحو تدوين جديد للعلوم الإسلامية
64	مجموعة الكتب المطلوبة
66	الجهود الإصلاحية والتجديدة
74	الخطوة الأولى: جامعة إسلامية